قصص الرحالة والمكتشفين

٢

ڤاسكو دى جاما



دار المعارف

قصص الرحّالة والمكتشفين

فاسْكُو دِى جَامَا

بقلم

محمد عبد الغنى حسن

الطبعة الثانية

دار المعارف

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الالكترونى
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@ idsc.net.eg

مولد الملاح ونشأته

فِى قريةٍ صغيرةٍ منْ قُرى البرتغالِ تُسمى «Sines» «سينز» وفى ولايةِ المتيجو «Alemtejo» إحْدَى أعمالِ هذه المملكةِ الطموح إلى ما وراءَ الآفاقِ البعيدةِ خلفَ البحار، وفى سنة ١٤٦٠ من ميلادِ السيد المسيحِ عليه السلام، وُلد لأحدِ الرجالِ المتوسطين فى الثراءِ وَلَدٌ جاءَ تاليًا لأخٍ أكبرَ اسمه «Paulo» «باولو». وتردَّدت الأسرةُ فى اختيار الاسمِ الذِى سيكونُ علمًا عَلى الوليدِ الجديدِ، كما هى عادةُ الناسِ حينَ يستقبلونَ المواليدَ.. وحينَ تُصمم الأقدارُ على الاسمِ الذِى وَقَعَ عَليه الاخْتيار، فإنها تكونُ حينَ ذَاكَ قدْ رسَمت الفلكَ الذِى يدورُ فيه صاحبُ الاسمِ سعادةً وشقاءً، ورفعةً وانخفاضًا، وإقبالاً وإدْبارًا.

وكان اسمُ «Vasco» «فاسكُو» هو الذِى اخْتَارته الأقدارُ، أو اخْتَارته الأسرةُ لهذَا الوليدِ المسْتهل.. ولكنَّ الناسَ - حتى أهل هذا الوليد - لم يعلَمُوا أنهم يلُفُّونَ فى ثيابِ المهدِ طفلاً سيتحدَّثُ باسمه الزمَان.

نعم! كانت الأقدارُ تُهَيئ منذُ طفولةِ الوليد «فاسكُو» كُلَّ سببٍ يصلُ بهِ إلى الشهرةِ، ويصلُ اسْمُهُ إلى مسامعِ الملكِ «Manul» «عمانويل الأول» ملكِ البرتغالِ، ومسامعِ رجالِ البلاطِ فى عَهْده،

وكـانتْ فـى شـبابِ «فاسـكُو» المبكِّـر حـروبٌ بـينَ مملكــةِ «البرتغــالِ» «وقشتالة[1]»، وكـانت هَـذِه الحـروبُ قائمَـةً علـى المنافسـةِ والمطـامعِ وشهواتِ التوسُّعِ بينَ البلديْنِ. ولكنَّ قوةَ «قشتالة» لم تكُن بحيثُ تقفُ طويلاً أَمَامَ البرتغالِ ومطامعهَا البعيدَة.

وفى هَذِه الحروبِ اشتركَ الشَّاب «فاســكُو دِى جَامَـا» ضِـدَّ الدولـةِ المعاديةِ لوطَنِه، فأظهرَ منْ ضُروبِ الشَّجَاعة، وحُسنِ البـلاَء، وثبـاتِ القلبِ ما لفتَ إليه الأنظــار. وعـرفَ الملـكُ «عمـانويل» باسمـه وبأنبـاءَ شجَاعته، فكأنما كانَ يدَّخره ليومٍ عَصيبٍ.

وظهرتْ شجاعةُ الشَّـاب «فاسـكُو» فـى البحـرِ كمـا ظَـهرت عَلـى سطحِ الـبر. فقـد اشـتركَ فـى رحـلاتٍ بحريـةٍ، وفـى مغـامراتٍ حَـولَ الشَّاطِئ البرتغالى، ولو أنه لَمْ يتوغل كثيراً فى ظلمـاتِ المحيـطِ. إلا أنَّ روحَه البحريةَ العاليةَ، ومهارتَــهُ فـى ركـوبِ البحـرِ قـد لفتـتْ إليـه الأنظار، وَجَذبت إليه الأسماع.

وجاءت الساعةُ المناسبةُ التِى كانت الأقدارُ تعدهَـا مـنْ زمـنٍ بعيـدٍ لهذا الشابِّ المغامرِ الوديعِ. ففى مَطَـالعِ الصيـفِ مـن عـام ١٤٩٧ كـانَ الشغفُ بكسبِ كشوفٍ بحريةٍ جديدةٍ يلحُّ عَلــى الملـكِ الطمُـوح، فـإذا كانَ «ديار» قد بلغَ فــى البحـار حتـى رأسِ «عشـمِ الخـيرِ»، وإذا كـانَ

---

(١) قشتالة : مملكةٌ قديمةٌ بشمالِ ووسطِ أسبانيا. وأصبحـت عاصمتـها مَدْريـد بعـد القرنِ السادسِ عَشَر.



«خريستوف كولمبوس» قد بلغَ فى مَسِيره غربًا إلى أنْ كشفَ قارةً جديدةً كانت بعيدةً عن مواقعِ الظُّنُون، أو مَرَامى العيونِ، هى قارة أمريكا، فلمَ لا يواصلُ المغامرونَ منْ أهلِ البرتغالِ أسْفَارهم، ولمَ لا يركبونَ ظهورَ الأمواجِ المتلاطمَةِ، ليكشفُوا للبرتغالِ - التِى أظهرتْ أمثالَ الأميرِ «هنرى الملاح» - وللعالمِ كُلِّه طرقًا جديدَةً، إلى بلادٍ بعيدةٍ، لَمْ تطأهَا من قبلُ أقدامُ المغامرينَ والكاشفينَ؟

وبحثَ الملكُ «عمانويل» بينَ شبابِ شَعبه المحبِّ للبحار عنْ شَابٍّ يحققُ الأمنيةَ التِى كانتْ حُلْمه فِى ليلِهِ، وشغلُه فِى نَهَاره، وأخذَ الملكُ يستقْصِى أنباءَ المغامرينَ والأبطَالَ، الذينَ قد تكونُ حروبُ البرتغالِ قد كشفَت مَوَاهِبَهُمْ وفضائلَ نُفُوسهم.

فى قصر عمانويل

فِى مَطالعِ الصيفِ من سنة ١٤٩٧ لجأَ الملكُ «عَمَانْويلْ» إلى كبيرِ مُنَجِّميه، وهو رجُلٌ منَ المتنبئينَ كانَ له عِلْمٌ بمواقعِ النُّجُومِ، وكان له معرفةٌ بما يدورُ فِى أفلاَكه منَ النَّحْسِ والسعْدِ، ومنَ الشَّر والخيرِ،

فاستشاره فيما هو مُقْبل عليه منْ كَشْفِ طريقٍ جديدٍ إلى بلادِ الهندِ، عنْ طريقِ رأسِ الرجَاءِ الصَّالح، أو رأسِ عَشَم الخير.

وكانَ الناسُ فِى ذلكَ الزمانِ يعتقدونَ فِى هؤلاءِ المنجمينَ وَيَسْتَشِيرُونَهُمْ فى أمورهم.. ولكنَّ النجومَ لم تقلْ فى هذِه المرةِ اسمَ ذلكَ البطَل الذِى خَبّأته الأقدارُ وراءَ الستَار، بلْ ذكَرت أَنَّ كشفًا جديدًا سيجلبُ للملكِ «عمانويل» الذهبَ الكثيرَ، والخيرَ الوفيرَ، وأنَّ هذا الكشفَ المنتظرَ سيكونُ على يدِ رجلٍ جمعَ إلى شجَاعةِ القلبِ، رجَاحةِ العقلِ، وسدادِ الرأى، والصبرِ علَى المكاره مهمَا كَانت، والشدائِد مهمَا عَظُمت.. وأَنَّ هذا الرجلَ له أخٌ يشدُّ أَزْره، كما شدَّ مُوسَى[1] الكليمُ أَزْره بأخيه هَارون ...

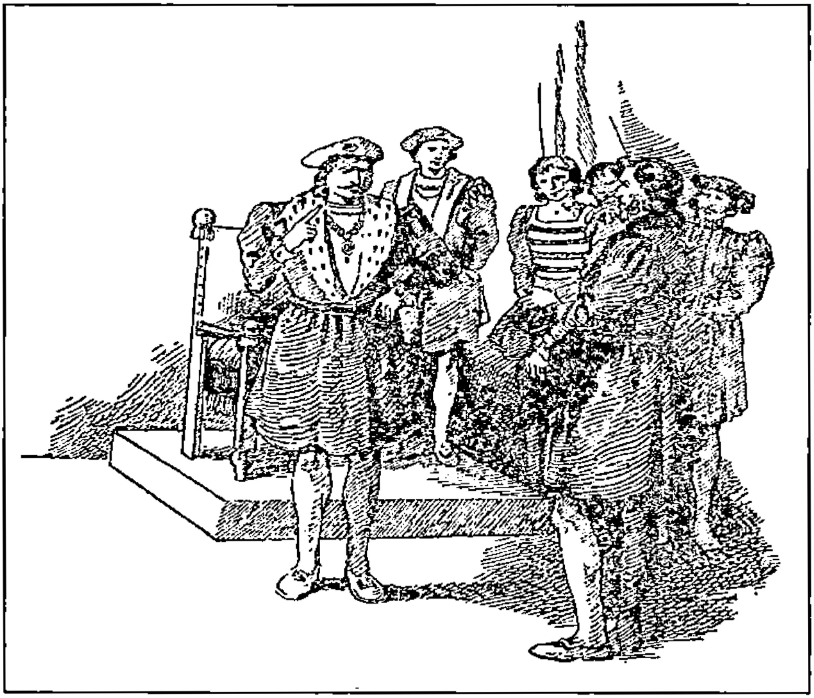
وبحثَ الملكُ عنْ رجلٍ تجمَّعَت فيه الصفاتُ التِى كشفهَا المنجمُ بحسابِ نُجُومه ومعلُوماتِ فلكه! وهنَا يَلتقى الحظُّ معَ التنْجيم كما تَلتقى المصادفةُ معَ القصدِ، وإذَا بالرجلِ فاسْكُو دِى جَامَا يظهرُ فِى الميدانِ بماضيه وبآثاره المرْويَّةِ فِى الحروبِ. وَإذا له أخٌ اسمه



(١) هُوَ مُوسى نبىُّ الله. وسُمى الكليمُ لأنه كلَّم الله من فوقِ جَبَلِ الطُّور فى سينَاء.

«باولو» ولكنه ليسَ فى مَنَالِ الأيدِى، لأنه هـاربٌ مـنْ تنفيـذِ عقوبـةٍ عليه، لأنه أصابَ قاضيَ إحْدَى المدنِ البرتُغالية بجرحٍ بليغٍ فـى أثنـاءِ خُصُومةٍ بينهما، فَخَشى «باولو» أن يقـعَ فـى يـدِ القـاضِى فيعَاقبـه بالسجنِ، فآثر الهربَ على ظلامِ السُّجُون.

وذاتَ يومٍ جمعَ الملكُ إلى ساحاتِ قصْره العظيمِ فى العاصمـةِ: لِشْبُونة كلَّ مَنْ بَلغه أنَّ لهم خِبرةً بركـوبِ البحـار، ومداومـةِ الأسـفار، وكـانَ فيمـنْ دُعِـيَ إلـى هـذا الاجتماعِ «فاسكو دى جاما»، وكانَ فيه حيـاءٌ



وخجلٌ شديدٌ لم يرفَعْه إلى مرتبةِ المتظَاهرِينَ. وأخذَ الملكُ الخبيرُ بعلمِ البحار، الطموح إلى ما وراءَ الأفقِ البعيدِ، يَسْأَلُ المدعوينَ ويستطلعُ مَا عِنْدَهم، ويأخذُ ويُعطِي معهم فى الحديث حتَّى يختبرَ بنفسِه مَدَى مَعَارفهم، ويعرفَ مبلغَ اسْتِعْدَادهم.

وجاء الملكُ إلى «فاسكو دى جاما» يَسْأله كما سألَ مَنْ قَبله مِنَ الرجالِ، وكانت إجَاباتُ الرجلِ تحملُ منَ الثقةِ والثباتِ والصدقِ ما جعلَ الملك يطيلُ مَعَهُ الكلامَ.

وسألَ الملكُ «فاسكو دى جَامَا» عَمَّا إذَا كانَ له أخ، فأجابَ الرجلُ بالإثباتِ، ولكنه ذكَر قصةَ الأخِ الطريدِ الهاربِ خشيةً منَ العقابِ. وأعلنَ الملكُ عَفْوه عَنْ «باولو» الهاربِ، حتى يستطيعَ أن يعودَ إلى الظهور حيثُ شاءَ، بدلاً مِنَ الاختفَاء.

وكان قصدُ الملكِ واضحًا منْ هذَا العفْو عَنْ «باولو» شقيق فاسكُو دِي جَامَا. ألم تخبره النجومُ - على لسانِ مُنجمه الخاص - أَنَّ الغِنَى سَيَأتيه عنْ طريقِ كشفٍ عظيمٍ، عَلى يدِ رجلٍ جَرِىء، يشدُّ أَزْره أخٌ شَقِيقٌ؟

وهنا جاء الرجلُ الجرىءُ، وله أخٌ شقيقٌ، ولكلٍّ مِنَ الاثنينِ خبرةٌ بالبحار، فلمَ لا تتحققُ النبوءةُ فيهمَا، ولِمَ لا يقعُ عليهما اختيارُ الملكِ، حتى يطابقَ هذا ما أَخْبرت به النجومُ؟

لقدْ أعلنَ الملكُ «عمانويل» فى نهايةِ الحفلِ أنه قد اختارَ «فاسكو دى جاما» لكشْفِ طريقِ الهندِ عن طريقِ العبور حولَ إفريقيَّة، أو حولَ رأسِ الرجاءِ الصالحِ، الذِى كانَ يُظَنُّ أنه نِهَاية المطافِ منذْ رحلةِ «بارتلميو دياز» .

ثم أعلنَ الملكُ فى الحفلِ نَفْسِهِ عَفْوه عَنْ باولو دِى جَامَا، وَسُقُوط العقوبةِ عنه، وأنه حرٌّ أن يظهرَ فلاَ يناله عِقَاب، ولا يُصيبه جَزَاء .

طريق إلى الهند

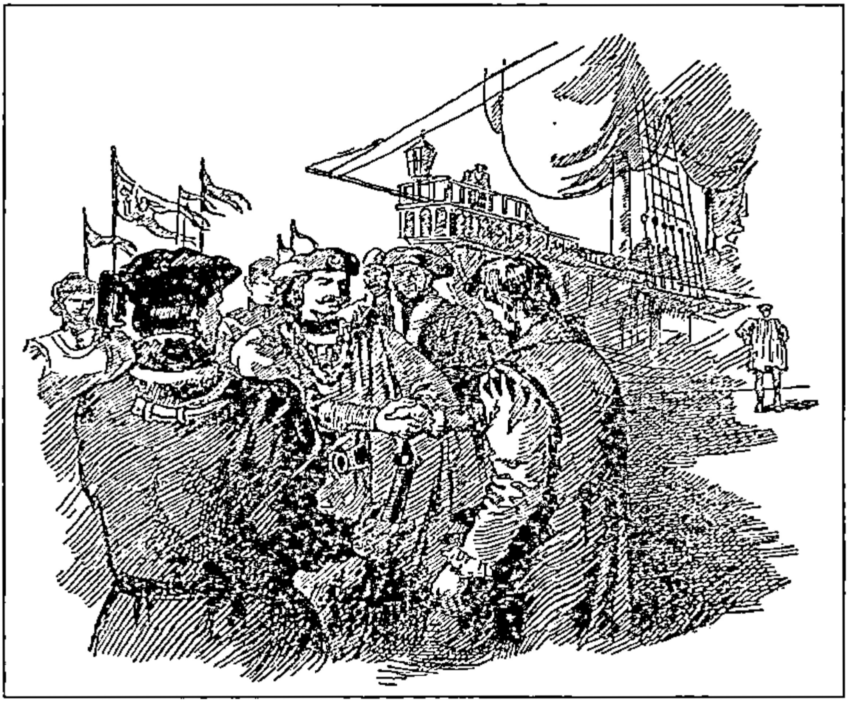
شَهِدَ ثغرُ لشبونة فى الأُسْبوعِ الأولِ منْ شهرِ يوليو سنة ١٤٩٧ احتفالاً رائعًا لم يشهدْه منْ قبلُ حتى فى أيام بارتلميو دياز، وازدحَمَت المدينةُ العتيقةُ بالآلافِ المؤلفةِ منَ الرجالِ والنساءِ والولدانِ، الذينَ وفدُوا عليهَا فى هَذِه المناسبةِ السَّعيدة، مناسبةُ إقلاعِ السفنِ التِى ستمخُر عبابَ البحرِ الزخار[١]، لتكشفَ الطريقَ إلى الهندِ عَنْ طريقِ غَرْبى إفريقية، لا عنْ طريقِ البحرِ المتوسطِ[٢] الذِى كانت تعترضُه صعوباتُ النقلِ عنْ طريقِ برزخِ السُّوَيس.

---

(١) الزخار: زَخَر النهرُ: زَخْرًا. وزُخُورًا. وزَخيرا: طَمَا وفاضَ.

(٢) هو الذى يسمى الآن خطأ بالبحر الأبيض المتوسط.

وجاءَ الملكُ «عمانويل» نفسُه إلى المرفَأِ[١]، وحوله حَاشيتُه وبطَانَتُه فى مَلَابسهم الزَّاهيَة، وَفِى أَثوابهم المصْنُوعةِ منَ الحريرِ أو القطيفةِ الملَونة، وفى عبَاءاتهم المزركَشةِ الموشَّاةِ بالحلى والقصَب، وفِى سَرَاويلهم المزنقَةِ حَول أرجلِهِم الدقيقةِ الصلْبة، ليودِّعوا المغامرَ «فاسكُو دِى جَامَا» وأعضاءَ رحْلته الذينَ سينشرونَ قُلُوعهم،



(١) المرفأ: مَرْسَى السُّفنِ فِى البحرِ.

ويضربون بمجاديفهم عمّا قليل، ليجوبوا أقاصى البحار، وأطراف الأرض البعيدة، فى سبيل العثور على طريق جديد.

وكانت بلاد الهند بأحلامها الجميلة، ومحصولاتها الغالية الثمينة، وبتوابلها الشهية اللذيذة، وبتجارتها الرابحة الوفيرة هى هدف البرتغاليين ومحطّ آمالهم فى هذه الرحلة المهيّأة، وما سبقها من رحلات كان آخرها رحلة «بارتلميو دياز» .

لقد كان قصد البرتغاليين أن يكتشفوا إلى الهند طريقًا أقصر، وأقل كلفة، وأوصل حبلاً من طريق البندقية - فى البحر المتوسط - الذى كان يكلّف من الجهد، ومن مشقّات النقل والتفريغ فى مصر، ما كانت تذهب أكبر حصيلة منه إلى جيوب المماليك فى مصر، وإلى جيوب البنادقة فى ثغر البندقية.

وأعدّ الملك لهذه الرحلة المخاطرة أربعًا من السفن قوية البناء، متينة الأضلاع، متلاحمة القلاع، قائمة الصّوارى[1]، صلبة المجاديف[2]، وأعدّ لها من ضرورات الرحلة، وملاقاة الظروف، واحتياطات الأحداث ما يواجه كلّ احتمال، كما أعدّ لها من مخزون الطّعام والشّراب، وعاجل الدواء، ومسعف العقاقير ما يجب معه الاحتياط، حتى الليمون! لقد كان منه زادٌ يكفى لإسعاف البحارة حين يصيبهم الدوار، أو يلحقهم الغثيان.

---

(١) الصّارى : العمود فى وسط السفينة يعلق فيه الشراع. وجمعه صوار.

(٢) المجداف: خشبة فى رأسها لوح عريض تدفع به السفينة والمفرد: مجداف.

وقد حَمَلت هذه السفنُ منَ الأسماءِ مَا لا يحمِلُ بالتاريخِ أَنْ ينْساه، وَهُو يَرْوى قصةَ هؤلاءِ المغامرينَ جيلاً بعدَ جيلٍ. ووقفَ أميرُ البحرِ الجرىءِ يوزعُ الرجالَ عَلى السفنِ، ويخصُّ كُلَّ سفينةٍ بقائدٍ يثقُ به ويعتمدُ عليه، وهو يقولُ: اصعدْ يَا «باولو دى جَامَا» إلى السفينةِ «سان رافايل» فإنها تحْتَ إمرتكَ! واصعدْ يا «نيقولا كوبليو» إلى السفينةِ «بريو» فإنها فِى ذِمتكَ! واصعَدْ يا «جونسالو» إلى سفينةِ المئونةِ فإنها فِى عُهدتكَ! أما أنا فَنَصيبى سفينة «سَانْ جابرييل» ! .

وكانَ العَلَمُ البرتغالى يرفرفُ فوقَ «سان جابرييل»، لأنها تحملُ الملاحَ وأميرَ البحرِ المغَامِر، الذِى يمثلُ ملكَ البرتغالِ العظيمِ.

وآذنت الساعةُ بقيامِ السفنِ فى طريقهَا إلى الهدفِ الجليلِ، وَرَفَعت كلٌّ واحدةٍ منهَا مَرَاسيهَا[1]، ونَشَرت قِلاَعهَا[2]، لتضرب فى أوساط المحيط، إلى غايةٍ مجهولةٍ، لا يدْرى ماذَا يكونُ عندهَا إلا عَلاّم الغُيُوب..

إيمان المغامرين

ما أجملَ الإيمانَ باللهِ حينَ يملأُ القلوبَ، ويعمرُ النفوسَ! إنه العدة فى الشدةِ، والضياء فِى الظلامِ، والإشراقة الحلوة التى تبددُ ظلماتِ اليأسِ المريرِ.

---

(١) رَست السفينَةُ: وَقفت عن السَّيْر. المرسى: مكان رُسُوّ السَّفينة.
(٢) القلْعُ: شراعُ السَّفينة. الجمع: قُلُوعٌ. وقلاعٌ. وقلعةٌ.

لو رجعنَا إلى الليلةِ السابقةِ عَلى ليلةِ رحيلِ «فاسكو دى جاما» مِنْ ميناء «Restelo» «ريستلو» بثغرِ لشبونة، لوجدنَا الرجلَ الجرىءَ يأخذُ معه كُلَّ رجالِ هذِه البعثةِ الكشفيةِ، فيمْضِى - عَلى مَسيرةِ أربعة أميالٍ منْ لشبونة - إلى بَيْعَة[1] صغيرة، كان قد بناهَا الأميرُ البرتغالى «هنرى الملاّح» منذُ عشراتِ السنينَ، ليتجِهَ فيها الملاحونَ - الغَادُونَ[2] والرائحُون[3] - إلى الله فى صَلَوَاتهم.

وقد اتجهَ «فاسكو دى جاما» إلى هَذِه الكنيسةِ الصغيرةِ المطلةِ عَلى البحرِ من قريبٍ، وأخذَ يُصلى لله معَ قومِهِ، مُستمدًا منه العونَ على إنجاحِ العملِ الذِى هو مقبلٌ عليه، والذِى لا يعرفُ مَا تُخبئه له الأقدارُ فيه.

وحينمَا علمَ الملكُ المتدينُ نبأَ هذِه الصلواتِ التى أقامهَا أميرُ البحرِ قبلَ الرحيلِ بليلةٍ واحدةٍ، نَذَر إذَا عَادَ «فاسكو دى جاما» ظافرًا من رحْلته ليقيمنَّ عَلى أرضِ هذِه البيعةِ ديرًا فخمًا، جليلَ البناءِ، يكونُ مثابةً لكلِّ مُتبتلٍ ينقطعُ لعبادةِ الله.

غادرتِ السفينةُ ميناءَ «ريستلو» فى اليومِ الثامنِ من شهر يوليو سنة ١٤٩٧ بينَ هتافِ الرجالِ، وزغاريدِ النساءِ، وضياحِ الأطفالِ. وفى زاويةٍ هادئةٍ من زوايَا السفينةِ «سان رافايل» - حيثُ كانت القيادةُ

---

(١) البيعة: الكنيسة والمعبد لغير المسلمين.

(٢) غَدا: غُدُوًا: ذَهَبَ غُدْوة.

(٣) رَاح: رواحا: سارَ فى العَشىِّ. ويستعمل الرّواح للمسير فى أىِّ وقت من ليْل أو نهار وكذلك الغُدُوّ.

لباولو شقيق «فاسكو دى جاما» - جلسَ كاتبٌ يُدوِّن يومياتٍ عَنِ الرحلةِ وتطوراتـها، وكانت هَذِه اليومياتُ الخطيرةُ المصدرَ الذِى اعتمدَ عليه المؤرخونَ فى تدوينِ أخبار كشفِ الطريقِ إلى الهند.

لم يكن الأسبوعُ الأولُ من الرحلةِ حافلاً بكثيرٍ منَ المغامراتِ، فقد كانَ البحرُ ساكنًا، والريحُ غيرُ غضوبٍ ولا عَاصِفة، وبدأ الأسبوعُ الثانِى حيثُ مرتِ السفنُ بجزر كنارى، وبخليج «ترا ألتا» «Terra-Alta» الذِى اشتهرَ بذلكَ الاسم عندَ ملاحى البرتغال منذُ أن بدأت سُفُنهم تشقُّ عبابَ المحيطِ. ولم يجد الملاحونَ بأسًا فى أن يصيدُوا السمكَ لبضعِ ساعاتٍ منْ صباحِ يومٍ جميلٍ، حيثُ اجتازُوا خليجَ «ريو دو أورو» «Rio do Ouro» الواقعَ على مدار السَّرطان.

وأخذتِ السفنُ تتجهُ نحوَ الجنوبِ حينَ بدأ الضبابُ ينعقدُ كثيفًا فى الليلِ، فلم تتبينْ كلُّ سفينةٍ أختهَا، ولم يستطعْ «باولو دى جاما» - وهو على ظهرِ «سَان رافايل» - أنْ يرى أخَاه «فاسكو» وهو عَلى السفينةِ «سان جابرييل»، ولم يبددْ نورُ الصباحِ ولا شمسُه غياهبَ[1] هذا الضبابِ الكثيفِ، فلم تستطع واحدةٌ منَ السفنِ أن تتبينَ غيرهَا، وهنا أمرَ «باولو» ملاّحيه أن يوجهُوا الشراعَ إلى «رأس فرد» «Cape Verde»، حيث اتفقَ رجالُ البعثةِ على أن يلتقُوا هناكَ إذَا ما فرقهم حادثٌ، أو بَاعَدت بينهم ظروفٌ.

---

(١) الغيهَبُ: الظلمةُ الشديدةُ والجمع غيَاهِب.

ولم يستطع «رأس فرد» أن يجمع شمل المتفرقين، وأخذت كل سفينة تضرب فى الظلام، وأخذت الريح تصفر صفيرا ألقى الرعب فى القلوب، وبعد ساعة اليأس واستحكام حلقته، انقشع الضباب، وسكنت الريح، وإذا بالملاح «باولو» يلمح سفينة أخيه «فاسكو دى جاما» وهى تسبق الركب ببضعة عشر ميلا. وهنا انفرجت الأسارير، وابتسمت الثغور. ولما تقارب المتباعدون، صعدت من هنا وهناك أصوات اختلطت مع صوت الأمواج، تحمل عبارات الفرح باللقاء، والابتهاج بجمع الشمل. فلما أرخى الليل سدوله أطلقت السفن النيران، ودقوا الطبول، وأقاموا ليلة بهيجة للاجتماع بعد أن فرقهم الضباب.

ومر يوم على هذا المهرجان الليلى الذى احتفل فيه رواد المحيط باجتماعهم والتقائهم بعد أن ذهبوا فى نواحى المياه كل مذهب، وما كان أشد فرحهم حين بلغوا جزيرة «سنتياجو»، وهى أكبر جزائر «رأس فرد»، فألقوا مراسيهم فى خليج «سانتا ماريا»، حيث استراحوا، وتزودوا باللحم والماء وخشب الوقود، وأصلحوا من سفنهم ما دعت الحاجة إلى إصلاحه.

ولكنهم لم ينعموا بذلك كثيرا، فعلى بعد مائتى فرسخ من سنتياجو - وهم متجهون إلى الجنوب - ارتفعت أصوات مختلطة من السفينة «سان جبرييل» التى تحمل على متنها «فاسكو دى جاما»،

وخَشى الرَّكْبُ[١] أنْ يكونَ الرائدُ الأولُ أو أحدٌ منْ رجالِه أصيبَ بمكْروه، ولكنْ تبينَ أنَّ صارى السفينة قد انكسَر، وعانى الملاحونَ يومينِ وليلة فِى إصْلاحه، بعد أن احْتالوا علَى السيرِ بالنهار، والسُّرى[٢] فى الليلِ، بما أسْعفتهم به الحيلُ.

وفى الربع الأخير من شهر أغسطس - وعلَى ما ذكره مُدوِّن الرحلةِ فى الثانِى والعشرينَ منه - بينما كانُوا متجهينَ نحوَ الجنوب الغربى، رأوا فى السماءِ طيورًا كثيرةً تُشبه إلى حدٍّ بعيدٍ طائرَ البلشون[٣]، فلما قاربَ الليلُ أنْ يُظلم رأوا تلكَ الطيور تندفعُ بقوةٍ فى طَيرانها نحوَ الجنوبِ الشرقى، كأنمَا هى تسرعُ إلى البر قبلَ أنْ يلفهَا الظلامُ الرهيبُ. فلمَّا أشرقَ صباحُ اليومِ التالِى - وكانُوا مُوغلينَ فى مياه البحرِ إلى مسافةِ ثمانمائة فرسخٍ - صادفهم لأولِ مرةٍ حوتٌ هائلٌ من حيتانِ المحيطِ، فزادَ ذلكَ منْ وَحْشتهم.

وكأنَّ ذلكَ الحوت كانَ نذيرًا بما وراءه من حيوانِ البحرِ الغريبِ، وكأنه كانَ بدايةَ منطقةٍ عامرةٍ بأنواعٍ منْ سباعِ البحرِ، مما لم يكنْ لكثيرٍ من رجالِ الرحلةِ سابقَ عهدٍ به.

وظلُّوا كذلكَ أسابيعَ وأسابيعَ، تُسلمهم موجةٌ إلى موجةٍ، وتقذفُ بهم لُجَّةٌ[٤] وراءَ لجةٍ، حتى لاحَت لهم علاماتٌ كثيرةٌ تدلُّ على قُرْبِ

---

(١) الركْبُ: جمعُ راكب.
(٢) السُّرى: بتشديد السين المضمومة وفتح الراء. السَّير ليلاً.
(٣) طائر طويل المنقار والرجلين. ويُعرف بمالك الحزين.
(٤) اللُّجَّةُ: تردُّدُ أمْواج البحر. والجمع لُجٌّ ولُجَجٌ ولجاجٌ.

الأرضِ منهم، وكانَ أوضحُ هذِه العلاماتِ ظهورَ الأعشابِ التى تَنْمو عَلى الخلجَانِ والشَّوَاطىء.

ولم تكذب التجربةُ والقياسُ مَا رَأوه بالعين، واستنبطُوه بالنظرِ، فقدْ دلَّوا[1] مقاييسَ الأعماقِ فكانت النتيجةُ مُصَدِّقةً لاستنباطِهم، وَمَا هو إلا أنْ طلعَ الصباحُ فكانت الأرضُ منهم على مَدَى النظرِ القَريب.

خليج سانت هيلين

لظهور الأرضِ بعدَ سفرِ البحرِ الطويلِ فرحةٌ لا يعرفهَا إلاَّ الذينَ كابدُوا الأسفارَ فِى البحار، وكذلكَ كانت فَرحة «فاسكو دى جاما» ورجَاله حينَ لاَحت لهم معالمُ الأرضِ منْ قريبي، فقاربُوا السفنَ بعضهَا منْ بعضٍ حتى كَادَت تتلاحَمُ، وارتدُوا ثيابَ الأعيادِ والمهرجَاناتِ كأنهم فى يومِ عيدٍ، وَحَيوا الملاّحَ الأعظَم - فاسكو - بإطلاقِ النيرانِ وإشعالِ الصَّوَاريخ، وَزَينوا السفنَ بالراياتِ والأَعلام، وهَدَّءُوا مِنْ سرعةِ السفنِ استعدادًا للرسُوِّ عَلى الأرضِ، ولكنْ ما كانَ أشد أسَفهم حينَ لم يجدُوا مَرْسى أمينًا تطمئنُّ إليه نفوسُهم، أو أرضًا صلبةً تثبتُ عليها أقدامُهم، فعادُوا إلى البحرِ يجدونَ فيه الملجأَ الأمينَ؛ ولكنهم فى اليومِ التالى رجعُوا إلى الأرضِ، فوجدوهَا مُنخفضةً واطئةً يؤدِّى إليها خليجٌ وسيعٌ.

---

(١) دَلَّى الحبلَ: أنزلَه فِى البئر أو البحرِ أو القناة.

ولم يجدْ «فاسكُو دِى جَامَا» مَفَـرًّا مـنْ أنْ يـنزلَ أحـدُ ملآحيـه فـى قاربٍ خفيفٍ ليجسَّ الأعماقَ، ويختبرَ الأغوارَ[١]، حتى تتمكـنَ السـفنُ مِـنَ الرسـوِّ فـى مَرْسَـى يؤمـنُ معـه الجُنـوح[٢]، وكـانَ هـذا المـلاحُ «بيرو ديلنكير» شيخُ البحارةِ فِى السفينةِ «سان جبرييل» .

كانَ هذا الخليجُ أصْلح مَأْوى لجأت إليه سفنُ البعثةِ البرتغاليةِ بعدَ سفرٍ طويلٍ، فقد مرَّ عليهم إلى اليـومِ أربعـةُ أشـهرٍ - منـذُ رحيلـهم منْ لشبونة - لم ينعَمُوا فيها بمقامٍ هَادِئٍ هَـانِئٍ هَـانىءٍ كمقَامـهم فـى هذا الخليجِ: لقدْ كانت مياهُه صَافيةٌ نظيفَةٌ حتى لتكَـاد تشـفُّ عمـا تحتهَا، وكانَ بمأمَنٍ منَ الريـاحِ العَاتيـة، إلا الريَـاح الشـمالية الغَرْبيـة، التى لم يكنْ يقيهِ منهَا طبيعةُ امتدادِه منَ الشـرقِ إلى الغـربِ، وكـانَ هذا الخليجُ أشـبهَ بمولـودٍ جديـدٍ فـى نظـرِ هـؤلاءِ الـروادِ الكَاشـفينَ، فَبِمَاذَا يُسمى هذا الوليدُ الجديدُ؟

لقـد صـاحَ صـائحٌ منـهم: إن العنايـةَ قـد لاحظتنـا اليـومَ ببركـةِ القديسـةِ «هيلآنـة»، فلمـاذَا لا نقـرنُ اسمهَا بـه، كمـا تُقـرن الأسمـاءُ بأصحابهَا على مَدَار السنينَ؟ واتفقُـوا عَلـى أنْ يُسـموا هـذا الخليـجَ الطيبَ الهادئ: خليجَ «سانْتْ هيلين»..

وألقَوا مَرَاسيهم فى المرفـأِ الـذِى وجـدَه «بـيرو ديلنكـير» صالحًـا، ومكَثـوا هنـاكَ ثمانيـةَ أيـام نَظَّفـوا خلالهَا سـفنَهم، ورَفَـوْا قُلُوعَـهُم، واخترنُوا الخشبَ اللازمَ لوقُودهم ونَجْرِهم[٣].

---

(١) غَارَ الماءُ غوْرًا. وغؤورًا: ذَهَبَ فى الأرض وَسَفل فيهَا.
(٢) جَنحت السَّفينةُ: انتهت إلى ماءٍ قليل فمَالت ولصقت بالأرض.
(٣) النَّجْرُ: هو عمليةُ النجارة فى الخشبِ.

ونزلُوا من السفنِ بعدَ أن طالَ بـهم سـفرُ البحـرِ، فأحسُّوا كـأنَّ الأرضَ تضطربُ مِنْ تَحتهم أو تَميدُ بهم، كأنهم لا يزالونَ فوقَ سطحِ المحيطِ، وشاقهم السـيرُ فـى الـبرِّ بعـدَ أن كـانت الأرضُ منـهم بعيـدَة كالحلمِ، ورأوا أهلَ هذهِ الأرضِ قومًا منَ السـودِ، زادُهـم لحـم سبَاع البحرِ والحيتانِ والغزلانِ وجذور الأعشابِ. ولا يلبسونَ المنســوجَ مـنَ الثيابِ، وإنما يأتزرونَ[1] بجلودِ الحيوانِ، ويعلقونَ حرابًـا حَـادَّةً مُقَوسـة على أكْتَافِهم القويَّة، وسهَامِهم منْ خشَبِ الزيتُونِ.



(١) إئْـتَزَرَ. واتَّـزَرَ : لَبِـسَ الإزار. وهـو ثـوبُ يحيـطُ بـالنصفِ الأسْـفَلِ مـن البَدَن «يذكر ويؤنث»..

وما كانَ أشد الفروقِ فِى اللّونِ والعاداتِ والأكلِ بينَ سكّانِ هذِه الأرضِ وبينَ هؤلاءِ الغرباءِ النازلينَ عَليهم! وقد بَدَا كلٌّ شىءٍ هَنا غريبًا كلَّ الغرابةِ عَلى هؤلاءِ الروادِ الكاشفينَ، إلا الكِلاَب الكثيرة التِى كانتْ قريبةُ الشبهِ منْ كلابِ البرتغالِ، وكان نباحهَا أشبه بنباحهَا! وإلاَّ هذِه الطيور التِى كانت - كذلك - كطيور البرتغالِ، ومنهَا النورسُ، والحمامُ، والقنبرُ ذُو النواصِى، وكثيرٌ غيرهَا.

أما المناخُ فكانَ على حالةٍ منَ الاعتدالِ والجودةِ والملاءمةِ للصحّةِ لم يألفوهَا فى بلاَدهم، ولم يكُن المرعى وَخيمًا ولاَ وَبيلاً[1]، وإنما كانَ يجودُ بأطيبِ الأعْشابِ.

بين الزنوج

لم يكنْ شىءٌ أغرب عندَ هؤلاءِ البرتغاليينَ منْ أهلِ هذِه الأرضِ وهُم فِى ثيابهم منَ الجلودِ، وفِى حرَابهم المحدَّدَة، وفى سِلاَحِهم المهيأُ للنضَال. وقد نزلُوا إلى البر يومًا آخر - وعَلى رَأْسهم «فاسكو دى جاما» - فأَسَروا رجلاً منْ أهلِ البلادِ، وكانَ قزمًا أسودَ اللونِ.

وقد زادَ من غرابةِ هذا الأسودِ فى عُيونهم أنه كانَ يجمعُ عسلَ النحل منْ فوقِ كثبان الرملِ المنبسطِ، لأنَّ من عادةِ النحلِ هناكَ أن

(١) المكانُ الوخيمُ هو الثقيلُ الذى لا يلائم الصحة. والوبيلُ هو الضَار السيىءُ العاقِبة.

يمج[1] العسل عند أقدامِ الآكامِ[2]، وسفوحِ الروابى حولَ الأيكِ[3] اللَّفيفِ.

لقد بُوغت الرجلُ وهو مكبٌّ عَلى جَمْع العسَل، فإذَا به يؤخَذُ إلى سفينةِ «فاسكو دى جاما»، ولم يكنْ بينه وبينهُم منْ سبيلٍ إلى التفاهُم إلاَّ بالإِشَارة، وهى لغةُ الذينَ لا يتفاهمونَ باللسانِ، فأجلَسُوه معهم على المائدةِ، وأكلَ مما كانُوا منه يأكلُونَ.

وقضَى الرجلُ الإفريقى الأخيذ[4] لَيلتَه عِلى ظهرِ السفينةِ «سان جابرييل»، فلمَّا أقبلَ الصباحُ أمرَ «فاسكو» به أَنْ يلْبس أحسنَ الثيابِ وأن يذْهَب به إلى الشاطئ، فكانَ ما أمرَ به الربَّانُ العظيمُ..

وفى اليومِ التالِى جاءَ بضعةُ عَشَرَ منْ أهلِ هذِه البلادِ إلى حيثُ تَرسو السفنُ فى المرفأِ الأمينِ، وهنَا عرضَ عليهم «فاسكو دى جاما» أنواعًا منَ السلعِ، وصُنوفًا منَ البضائعِ ليعرفَ إذا كانت هذه السلعُ مما تُخْرجه هذِه البلادُ أو مما يَعْرِفه أهلُهَا، وكانَ مما عرضَه عليهم أعواد منَ القرفةِ، وحفنةٌ منَ القرنفلِ الأسودِ، وبعضُ اللآلئ والذهبِ وغيرِهَا. ولقد اتضحَ من نظراتِ عُيونهم وملاَمح وُجوههم أنهم لا يعرفونَ عنهَا شيئًا، وأنها لا وجودَ لها فِى أرضِهم. وعَلى الفور

---

(١) يمجُّ العسل: يقذِفُه مِنْ فمهِ.

(٢) الأكَمَة: التَّل. والجمع: أكَمٌ. وآكَام.

(٣) الأيْكَة: الشجرُ الكثير المُلْتف.

(٤) الأخيذ: المأخوذُ كالأسير.

قَدَّم إليهم قائدُ البعثةِ أجراسًا كُروية، وخَوَاتم منَ الصفيح، وعملةً من النحاسِ المطلى بالقَصْدِير.

وكأن صَليلَ[١] العملةِ ورنينهَا، ولمعانَ الصفيحِ الذِى سيعلُوه الصدأُ عَمَّا قليلٍ، قد أغرى أهلَ هذِه الأرض بالوفودِ عَلى سفنِ هؤلاءِ الكاشفينَ، لعلَّهم يُصيبونَ منها ما أصابَ إخوانهم بالأمسِ، ففى اليومِ التالِى جاءَ إلى مَرسى السفنِ الرابضةِ عَلى الشطِّ الهادئ أربعونَ أو خمسونَ منَ الوطنيينَ، فلم يكد ملاَّحو السفنِ يفرغونَ من غِدَائهم حتى نزلُوا إلى الأرضِ يجوسُون خلالهَا، ويعرفونَ أحوالها، ويختلطونَ بأهلهَا، واستطَاعوا بما حصَلُوا عليه منْ عملةٍ نُحَاسيةٍ أنْ يَشْتروا بعضَ الأصدافِ التى كانَ يحملهَا المواطنونَ فى آذانهم للتحَلىِّ بهَا، وقد بدَت هذه الأصدافُ فى بياضهَا الناصعِ وبريقهَا اللامعِ كأنها مَطْلية بالفضَّة. كَما اشْتروا أيضًا مراوحَ ومذبَّات[٢] مصْنوعة من ذُيولِ الثعالبِ المثبتةِ فى مَقَابض، وكانَ يستعملهَا أهلُ البلادِ فى الترويحِ على وُجُوههم، وذبِّ الهوامِّ والذبابِ عنهَا.

وبلغَ منْ حِرصهم عَلى النحاسِ وتقْدِيره أنهم كانُوا يشترونَ بالعملةِ الضئيلةِ منه سلاحًا كاملاً، حتى ليبيعَ الواحدُ منهم حَربته المحددةَ بأدنَى قِطعة منَ النحاسِ. ويبدُو حُبُّهم للنحاسِ فِى أنهم يحلُّونَ آذانهم بحباتٍ صَغيرةٍ منه.

---

(١) الصليلُ: صوتُ العملة.

(٢) المذبّات: جمع مذَبّة وهى ما يطردُ به الذبابُ «المَنَشَّة».

وكانَ «لفاسكو دى جاما» تابع منَ العبيدِ لم يرتفعْ بعـدُ إلى مرتبـةِ الأحرار، وكانَ الملاحُ الأعظمُ يُحبـه ويـأنسُ إليـه، ويَستبشـر بمطـالعِ وجهـهِ فـى أحلـكِ السـاعاتِ. فجـاءَ هــذا العبــدُ «فرنــان فيلــوزو» «F. Veloso» إلى «فاسكو» يسأله :

- أيأذنُ لى مولاَى القائدُ أنْ أصحبَ هـؤلاء الوطنيـين إلى بُيُوتـهم؟ فأَجَابه القائدُ :

- ألم يكفكَ أنْ تراهم هنَا عَلى ظهرِ السفينةِ وعَلى الشَّاطئ حتى تَمْضِى معهم إلى دُورهم؟

- أريدُ يا مولاىَ أن أكتشفَ طرائـقَ معيشَـتهم، وألـوانَ مآكلـهم، فإنَّ كلَّ شىء يبدُو غريبًا منهم.

- يأبى الفضولُ إلا أن يلازمكَ أيها العبدُ المتطفلُ! فاذهبْ ولا تبعدْ خشيةَ أن ينالكَ سُوء.

وذهبَ «فرنانُ» مع الزِنوجِ، وتركَ بقيةَ الجمعِ فِـى السـفنِ يُطْعمـون.. ولم يكد الزنوجُ يبرحـونَ المرسَى ويبعدونَ عــنِ الســفنِ بعـضَ البعـدِ حتى اصْطَادوا واحدًا من سباعِ البحرِ، ومَضوا به إلى سـفحِ هَضبـةٍ عاليةٍ قاحلةٍ، فأوقدُوا النارَ، ونَصبُوا الأحجـارَ، وشـووا ذلـكَ الصيـدِ البحرِى السمينِ الذِى يُعد أَشْهى طَعَامـهم، وأكلُـوا منـه وقدمُـوا إلى «فرنان فيلوزو» قطعًا منه، ثم أخذُوا يلتهمونَ بعــضَ الجـذور التــى يحبونهَا كثيرًا.

فلمَّا فرغُوا منْ زَادِهم العجيبِ، وملَئُوا بطونـهم شـواءً وجـذورًا، رَغبوا إلى «فيلوزو» أنْ لا يَمْضِـى معهم أكـثرَ مـنْ هـذا، بـل يجبُ أنْ يعودَ إلى السفنِ فى المرفأِ منْ حيثُ أتى.

ولم يكدْ «فيلوزو» يكونُ على مَرْمى حجرٍ مـنَ السـفنِ الراسِيَةِ، حتى سمعَ الملاحونَ البرتغاليونَ صيحاتٍ تنطلـقُ، فـإذا هـو «فيلـوزو» يصيحُ، وإذَا الزنوجُ متربصونَ فى أيكةٍ كثيفةٍ عَلى الشـاطئ. وكـانَ الملاحونَ لا يزالونَ عَلى موائدِ العشاءِ، فهرعُوا وعَلى رَأْسهم قـائدُهم «فاسكو دى جاما» الذِى كانَ آخِذًا حِذْره منذُ أرسَى سُفنه على ذلـكَ المرفأِ الهادئ. ونزلَ بعضُ البحارةِ إلى قاربٍ خَفيفٍ، خفافًا إلى النجدَةِ، سراعًا إلى إنقاذِ «فيلوزو»، الذِى كان فى الماءِ إلى ما يُدَانى صَدْره، وإذَا الزنوجُ يحاولونَ اختِطَافه ويحولونَ دونَ إصْعَاده إلى قاربِ النجدةِ، وقامَ بينَ الفريقينِ نِزَالٌ[1] استعملَ فيه الزنوجُ رِمَاحَهم، التِى أصيبَ منـها فاسكو دى جاما وأربعة من رجَاله ببعضِ الجراحِ.

ولقد تركَ هـذا الحـادثُ أثـرًا فـى نفـوسِ البرتغـاليينَ، ونَسـبوه إلى إحسَانهم الظَّن بقومٍ لم يظنوا فيهم عنفًا، وَلم يتوقَّعُوا منـهم غَـدْرًا، ولم يعلَمُوا أنَّ الزنوجَ كانُوا - مـن ناحيتـهم - يتوجسـونَ شـرًّا مـن هؤلاءِ الغرباءِ المقتحمينَ عليهم دِيَارَهم، المتطلعينَ فى فُضُولٍ إليهم. ولعلَّهم كانوا ينظرونَ من وراءِ الغيبِ إلى ما يُخفيه هؤلاء الزوّارُ لهذِه الديار، منْ طريقٍ إلى الفتحِ والاستعمار..

---

(١) نِزَالٌ: قِتالٌ وصراعٌ ومُنازلةٌ.

قريبًا من رأس الرجاء الصالح

لم يكنْ غايةُ جهدِ «فاسكو دى جاما» ورجَاله أنْ يبلُغوا أرضَ ذلكَ المرفأِ الأمينِ ليجعلوهَا نهايةَ مَطَافهم، وآخر رحْلَتهم. إنهم مَـاضُونَ إلى همةٍ أبعدَ منْ ذلكَ وأصعبَ مَنَالاً. وما هَـذه المرحلـةُ التـى وقفُـوا فيهَا إلاَّ وَاحِدة منْ مَرَاحل عــدةٍ لا يعلـمُ إلاَّ الله مـاذَا يكـونُ عددهَـا، ولا المصَاعب التِى تَحيطُ بها، ولا الأهْوال التِى دُونَهَا..

لقدْ رفعُوا المراسِى، وأخذُوا الأُهبـةَ للرحيـلِ بعـدَ أن تـزودُوا مِـنَ الخشـبِ والـزادِ، ونشـرُوا القـلاعَ، ومضُـوا متجـهينَ إلى الجنــوبِ، ولم يكونُوا يعلمونَ على وجهِ الضبطِ بعد، ما بينهُم وبــينَ رأسِ الرجـاءِ الصَّالح، حتى «بيرو ديلنكير» ذلكَ الملاحُ العتيــقُ الـذِى كـانَ مُصاحبًا «لبارتلميو دياز» فى سَفْرته إلى ذلكَ الرأسِ العنيدِ! حَتَّــى «ديلنكـير» لم يكن متأكدًا منَ المسافة عَلى الرغمِ منْ أنه سلكَ ذلكَ الطريقَ منْ قبل، ولم يكنْ يـدرى موضـعَ المكـانِ الـذِى هُـم فيـه الآن مـن الكـرةِ الأرضيةِ!

وَمَضوا فى المحيطِ تدفعُهُم الريحُ تارةً، وتطوحُ بهم أُخــرى، حَتَّـى قاربُوا رأسَ الرجاءِ الصالحِ، ولكنَّ عنفَ الرياحِ لم يمكِّنــهم مـنْ بُلُوغـه إلا بعدَ جهْدٍ جَــهيدٍ، ولقـد كلَّفـهم ذلـكَ أغلَـى الأثمانِ، فقـد تحطَّمـت

سفينةُ المؤنِ، ونُقل مَا فيهَا منَ الزادِ والمئونةِ والخشــب، ومـنْ عليـهَا مِنَ البحارةِ إلى السفنِ الثَّلاَث.

ولاحَ[1] لهم قرب الشاطئ الإفريقى خليجٌ أرادُوا أن يحتمُوا به بعدَ أن نَالَ منهم التعبُ والجهدُ منالاً كثيرًا، فإذا هُم فى خَليج «سان بـراس» الذِى يُعرف الآن باسمِ «خليــج موسـل» «Mossel Bay»، فأقـامُوا بـه قرابةَ أُسْبوعيْنِ، لعلهم يُريحونَ بذلكَ نُفُوسَهم التى زعزعتهَا الريـاحُ، وأجسَامَهُم التى أضنتهَا العواصفُ.

وفى خلالِ مَقَامهم بخليجِ «سان براس» ظهرَ لهم جمـعٌ مـنَ الزنـوجِ يقاربُ التسعينَ عـددًا، ويشـبهُ فـى مَلاَمحـه، وحِرَابـه، أولئكَ الزنـوجُ الذينَ لَقُوهم قبلَ ذلكَ فى خَليج «سانت هيلين»، وكان بعـضُ هـؤلاءِ القومِ يقطعــونَ الشـاطئ جَيْئَـةً وذهَابًا بينَمَـا بقـى الآخـرونَ فـوقَ الهضابِ لا يتحـركُونَ.

ولقد أثارَ هــذَا المشـهدُ فـى نفـوسِ الملاحـينَ شـكًّا ورعبًا ذكَّرهـم بما حدثَ من قبلُ، وكانَ أكثرُ الملاّحينَ فى السفنِ الثلاثِ قد احتشَدُوا عَلـى ظـهرِ السـفينةِ «سـان جـبرييل» ليكونـُوا عَلـى مقربــةٍ مــنْ مَلاَّحهم العظيمِ. فلمَّا وقعتْ أعينُـهم عَلـى الزنـوجِ فـى ذلـكَ الجمـعِ الحاشـدِ أعـدُّوا للأمـر عُدَّتـه، واسـتعدُّوا لمواجهـةِ مَـا قـدْ يجِـدُّ مــنْ أحـدَاثٍ، وهَيَّئُـوا السـفنَ للتحـركِ مـنْ سـكُونٍ، وجــهَّزُوا القــواربَ

---

(١) لاَحَ الشَىءُ لَوْحًا: ظهَرَ.

بالسلاحِ، واستعدُّوا للنزولِ عَلى البر. وعَلى مَقْربَةٍ مِنَ الشاطئ ألقى «فاسكو دى جامَا» إليهم عددًا مِنَ الأجراسِ الكُرويةِ فتهَافتُوا عَلى التقاطهَا، ونزلَ بعضُهم فى الماءِ ليتناولَ هذِه الأجراس منْ يدِ الملاَّح الجرِىء.

ولقد أثارَ ذلكَ دهشةَ البرتغاليينَ، فقدْ رَوى لهم «بيرو ديلنكير» - وهو ممن شهِدُوا رحلةَ «دياز» قبلَ ذلكَ - أنَّ الزنوجَ كانُوا يفرونَ حينما شاهدُوا «دياز» ورجَالَ بَعْثته، وأنهم أَبوا أن يتنَاولُوا شيئًا منْ يدِ ذلكَ الرجلُ الغريبُ! وتذكَّر «ديلنكير» مَشهدًا آخرَ فِى رحلةِ «دياز»، لم يَفِر فيه الزنوجُ، ولكنهم حاولُوا أن يمنعُوا «دياز» منْ بلوغِ الشاطئ، وصارُوا يرشقُونه بالحجَارة رشقًا منْ فوق هضبةٍ عاليةٍ مُشْرفة عَلى البحرِ، فلم يجدْ «دياز» وسيلةً لحمايتهِ منْ رشقِ الحجارةِ وقذْفِ قطعِ الصُّخُور، إلاَّ أَنْ يرمِى أحدَهم بسهمٍ أصَابَ منه مَقْتلاً.

ولقد كانَ حادثُ قتلِ الرحالةِ «دياز» لأحدِ الزنوجِ فى أثناءِ رحلتهِ سنة ١٤٨٦ وكشفِ رأسِ الرجاءِ الصَّالِحِ فى الطرفِ الجنوبى لإفريقية - سببًا لأَنْ يُوجِسَ(١) الوطنيونَ منْ كلِّ غريبٍ طَارئ عَلَيهم، ولكنهم هنَا أمامَ «فاسكو دى جاما» ورجَالـه لم يفرُّوا ولم يحَاولُوا الهربَ؛ لأنَّ الأنباءَ كانت قد سبقَتْ إليهم منْ أهلِ خليج «سانت هيلين» الذى قامَ فيه رجالُ «فاسكو» بعضَ الوقتِ، بأَنَّ هؤلاءِ القومِ لا ضررَ منهم،

(١) أَوْجَسَ الرجُلُ: أَحَسَّ بالخوفِ، وتوقَّعَ شيئًا ضَارًا.

منهم، ولا خَطَرَ فيهم، وأنهم يُوَزِّعُونَ منَ الهدايَا التى يحملونهَا مَعَهم ما تُطَيِّبُ به النفوسُ!.

ولم يشأْ «فاسكو دى جاما» أن ينزلَ فِى هذِه البقعةِ التى كانت تغطيهَا أيكةٌ كثيفةٌ مُلتفة الشجرِ، وآثرَ أن ينزلَ فى مكانٍ مكشوفٍ منَ الأرضِ حيثُ أشارَ إلى الزنوجِ أن ينتظِرُوه فيه.

ولقد أطاعَ الزنوجُ هذه الإشارةَ، فوقفُوا عَلى الأرض ينتظرونَ، بينمَا نزل «فاسكو دى جاما» ومعه أحدُ ملاَّحيه تحيطُ بهما شِرْذمةٌ[١] منَ الرجالِ المزودينَ بالسلاحِ والقِسِى المهيأَةِ للرمى.

ولم يُنتزعْ الشكُّ والحذرُ منْ نفسِ «فاسكو دى جاما» جُمْلة، فقد كانَ على الجانبِ الأمينِ حينمَا أبانَ لهؤلاءِ الزنوجِ - بالإشارةِ لا بالعبارةِ - أنْ يتفرقُوا، وأن يدعُوا التكتلَ فى هذِه الكتلِ، وأن يقتربُوا منه فُرَادى أَوْ مَثْنَى.

وسرعانَ ما فهمُوا الإشارةَ ولبوهَا على خيرِ الوجُوه. فكانَ يُقدم لكلِّ واحدٍ منهم الأجراسَ، والقلانسَ الحمراءَ؛ وكانوا يقدمونَ إليه فى مقابلِ ذلكَ أساورَ منَ العاجِ أو دَمَالجَ[٢] منه مما كانُوا يضَعُونه فى أعضَادِهِم[٣] أو سَوَاعِدهِم. وكانَ ظهورُ العاجِ بهذِه الكثرةِ دليلاً على

---

(١) الشرذمةُ: الجماعةُ القليلةُ من الناس.

(٢) الدمالج: جمع دُمْلج. وهو مثل السوار يلبسُ فى المعصمِ.

(٣) العضُدُ: ما بين المرْفقِ إلى الكتفِ والجمع أعْضَادٌ.

كثرةِ الأفيالِ فى تلكَ البلادِ. وإلى هنَا لم يكُن الملاحونَ رأوا قطيعًا منَ الفيلةِ، ولكنهم رأَوا فَضَلاتها حولَ مَوْرِدٍ للمَاءِ، عرفُوا أنه مَشْرَب الأفْيَالِ.

إلى جزيرة سباع البحر

فى أحدِ الأيام - بعدَ أنْ فرغَ الملاحونَ منْ شئونِ الصباحِ - وفى ذلكَ الخليجِ بالذاتِ، رأوا ما يقربُ منْ مائتى زنْجى، وقد وَفَدُوا على السفنِ الراسيةِ فِى الخليجِ، ما بينَ شابٍّ نَشيطٍ، وشيخٍ تَبْدُو عليهِ ملامحُ الكِبَرِ، وقد سَاقُوا معهم قطيعًا منَ الماشيةِ يبلغُ بضعةَ عَشَرَ ثورًا وبقرةً، وبضعةً منَ الغنمِ. فلم يكد يَرَاهم البرتغاليونَ من عَلى مُتونِ السفنِ حتى نزلُوا إلى الأرضِ، وهنَا بدأَ الزنوجُ يغنونَ عَلى النَّاى، وكانَ ارتفاعُ بعضِ النغمِ، وانخفاضِ البعضِ الآخرِ يحدثُ تَسَاوقًا[1] لا تكرهُهُ الآذان؛ وكان بقيةُ الزنوجِ ممن لا يصفرونَ فى النَاياتِ يرهفونَ آذَانَهم إلى تلكَ الموسيقى الوطنيةِ فى متاعٍ ونَشْوة؛ كما أخذُوا يرقصونَ عَلى إيقاعِ النغمِ رقصَاتٍ رتيبَاتٍ..

وسرعانَ ما استجابَ الملاحُ «فاسكو دى جاما» لهذِه التحيَّات؛ فأمرَ على الفورِ أنْ تدقَّ الطبولُ، وأذن لرجَال بَحْرِيَّتِه أن يرسلُوا[2]

---

(١) التَّسَاوُقُ: هو الانسجامُ بينَ الأشياءِ، والتَّتَابع بينهَا.

(٢) يُرْسِلُوا أَنْفُسهم على سجيتها: يتركوها عَلى طَبيعتها.

أنفُسَهُم علـى سـجيتها[١]، وأنْ يُطلقـوا العنـانَ لسـيقانهم بـالرقصِ البرتغَالى الجميـل.. وأخـذ «فاسـكو» يُشَاركُهم الرقــصَ فــى ذلــكَ المهرجانِ البديع؛ الذِى أُقِيمَ على ظُهور السفنِ الثلاثِ !

وما كادَ ينتـهى ذلـكَ الحفـلُ اللطيـفُ، حتـى نَـزَلَ البرتغـاليونَ إلى البقعةِ التى نزلوهَا قبلا، فاشتروا ثورًا أسودَ اللونِ، ودفعُوا فيـه مـنَ الثمنِ ثلاثَ أساورَ منَ العاجِ على سبيلِ المقايضَةِ !

وكانَ هذا الثورُ الإفريقـى غِـذاءً شـهيًا لمـائدةِ يـومِ الأحـدِ التَّـالى!، والحقُّ أنه كانَ قد امتلأ شَحْمًا، وَطُبِّقَ لحمًا؛ ووجدَ فيه الملاحونَ مِنْ لَذاذَةِ الطعمِ، وحلاوةِ المذاقِ مَا ذكَّرهم بأبقار البرتغَالِ!

واطمأنَّ الإفريقيـونَ إلى هـؤلاءِ الغربـاءِ الكرمـاءِ، فوفـدُوا عَليـهم للزيارةِ ومعهم زَوْجَاتهم وأبناؤُهم الصِّغار. ولكنَّ النسـاءَ كُـنَّ يبقيْـنَ عَلى رءوسِ المضابِ!

وقد تكررَ منظرُ القطعانِ من الأبقار والثيرانِ مع هــؤلاءِ الزنـوجِ الذيـنَ احتشـدُوا فـى بقعتيْـنِ عَلـى الشـاطئ، وأخــذُوا يُصَفــرون ويرقصُونَ كما فعلُوا فى يومٍ سَابِقٍ.

كانَ الشيوخُ المسـنونَ مـنَ الزنـوجِ يتحلَّقـونَ[٢] حـولَ البرتغـاليينَ ويتحدثـونَ معـهم بالإشـاراتِ، بينمـا كـانَ الشـبابُ منــهم يجتمعــونَ

---

(١) أىْ يتحررونَ منْ كل قيدٍ.

(٢) أىْ يجتمعونَ فِى حَلَقَاتٍ.

فى الغابةِ كأنهم عَلى أُهبةِ النضَالِ، ومعهم السلاح عَلى أطرافِ الأصَابع.

وفجأةً ساقَ الزنوجُ قُطعَانهم إلى جهَةِ الغابةِ، فتوجَّسَ «فاسكو دى جاما» شرًّا منْ هذا، وظنَّ أَنَّ فِى الأمرِ مَكيدةً يدبرهَا هؤلاءِ القومُ، فأمرِ رجَاله بأن يتجمعُوا جميعًا حتى لاَ يتخطَّفهم الزنوجُ على انفرادٍ، كما أمرَ أحد ملاّحيه «مارتن ألفونسو» أن لا يتقدمَ داخلَ الأرضِ للمساومةِ عَلى شراءِ ثيران.

وانسحبَ الملاّحونَ مُجتمعينَ، فتَبِعَهُم الزنوجُ، فعادَ الملاّحونَ إلى سُفُنهم وقد تسلَّحوا بالحرابِ والرمَاح، ليظهرُوا للقومِ أنهم مُستعدونَ للنضَالِ، وإن كانُوا لا يُضْمرونَ أىَّ سوءٍ. فلمَّا رآهم الزنوجُ على هذه الهيئةِ منَ السلاحِ لاَذُوا بالفرار.

وكانَ «فاسكو» حريصًا عَلى أن لا يُصابَ أحدٌ منَ الإفريقيينَ بسوءٍ منْ رشْقِ السهامِ وطعْنِ الرماحِ، حتى لا يثيرَ بذلكَ حفيظة[1] قومٍ كانَ أحرص على كسْبِ وُدّهم، ولكنه أرادَ أن يعرضَ أمامَ الزنوجِ مظهرًا من مَظَاهر قوته - حتى لا يطْمَعُوا فيه - فأمرَ أنْ يُطلق مِدْفعانِ منْ مُؤخرةِ أحدِ القواربِ، لإلقاءِ الرعبِ فِى النفوسِ.

---

(١) الحفِيظَةُ: الحِقْدُ والغَضَبُ الشَّدِيدُ.

ولم تكدِ القذيفةُ الأُولى تنطلقُ حتى دبَّ الهلعُ فى مفَاصِلِ الزنوجِ الجاثمينَ فى الغابةِ المطلَّةِ عَلى البحرِ، فَانْكَفَئُوا[١] سِرَاعًا فى هَربِهم حتى سقطتْ منْ على أجسَامهم جلودُ الحيواناتِ التى كانُوا يرتدونهَا، كما انخلعتْ مَفَاصِلهم، فسقطَتِ الحرابُ والأسلحةُ مِنْ أيديهم المرتَجِفة. ولم يُنسِهِم رَهَبُ[٢] الموقفِ أن يسوقُوا أنعَامَهم ومَاشِيتَهُم أمَامَهم، بعيدًا بعيدًا على رءُوسِ الهضَاب!.

ولم يفتْ مُدوِّن رحلةِ «فاسكو دى جاما» أنْ يصوِّر لنا فى لوحةٍ طريفةٍ دقيقةٍ ثيرانَ هذِه الأرضِ، فهى ضخَام الأجسَام، كثيراتِ السمن، أنيسَة غير وَحْشية، وكأنما أعَانَهَا الخصاءُ[٣] عَلى أن لا تنبتَ لها قرونٌ، وهى تستعملُ فى حملِ الأثقالِ والناسِ، فتفرْش على السرجِ المصنوعِ منَ الغابِ والقصبِ[٤] محفة منْ جذوعِ الأشجَار.

وكانَ على مَرْمَى ثلاثة سهامٍ منْ هذا الخليجِ جزيرةٌ تكْثُر فيها «سباعُ البحرِ» كثرةً تلفتُ الأنظَارَ، ولا تزالُ إلى اليومِ تحملُ اسمَ «جزيرة السباعِ» «Seal Island»، ويصلُ حجمُ الواحدِ منها إلى حجمِ الدبِّ الكبيرِ، ولها أنيابٌ غِلاَظٌ. وبلغتِ الضراوةُ بهذهِ السباعِ أنها تهاجمُ الإنسانَ، ولا تقوَى أصلبُ الرماحِ، وأشدُّ المزاريقِ، على أن تصيبهَا بجروحٍ، مهمَا كانت قوةُ الرماةِ وصلابةُ عَضَلاَتهم. عَلى أنَّ

---

(١) انكفئوا: رجَعُوا.

(٢) رَهِبهُ: رَهَبًا. ورهْبةً. ورُهْبا: خَافهُ.

(٣) الخصاءُ: عمليةُ اسْتئصال الخِصْيَةِ.

(٤) الحافةُ: النَّاحيةُ أو الجانبُ ومنَ الشيءِ طَرَفَه.

البرتغاليينَ شاهدُوا بجانبِ هَذِه السباعِ الضخمـةِ سـباعًا بحريـةً أُخـرى أَخف ضَـرَاوة، وأصْغـر حجمًا، وحـينَ يختلـطُ زئـيرُ كبارهَـا بثغَـاء[1] صغارهَا، يحدثُ من ذلكَ مزيجٌ عجيبٌ منَ الأصواتِ!

وفى يومٍ منَ الأيامِ خَاطر المغامرونَ برحلـةٍ عَلـى مقربـةٍ قريبـةٍ منْ هَذِه الجزيرةِ، التِى تُعد منْ أَغْنى مواطنِ سباعِ البحـرِ فـى عـالمِ المحيطَات؛ فما كانَ أَشد دَهْشـتهم حـينَ عَـدُّوا مـن صغارهَـا وكبارهَـا أكثرَ منْ ثلاثةِ آلافِ رأسٍ، وقد أخذَ الملاحونَ - وهم فى نشوةِ الفرحِ - يجعلونَ منْ عد هـذِه السـباعِ موضوعًـا للفكاهـةِ والتسـليةِ، وكـانَ «فاسكو دى جاما» يُشَجعهم عَلى المرحِ ويفتحُ لهم السبلَ إليه، حَتَّـى يُبعدَ المللَ عَـنْ نُفُوسـهم، فأشـارَ عليـهم أنْ يُطلقـوا النـيرانَ عليـها، فكانتِ السباعُ تقفزُ وتَثِبُ وثبـاتٍ عاليـةٍ بعيـدَةٍ، لعلـهَا تجدُ سـبيلاً إلى الخلاصِ منْ هذه الطلقاتِ المدَوية..

وليست سباعُ البحرِ أغربَ مَا فِى هَذِه الجزيرةِ، فهناكَ طيورٌ تبلـغُ مبلغَ البطِّ فى حجْمها، ولكنـهَا لا تسـتطيعُ الطـيرانَ، لأنَّ أجنحتـهَا عَارية منَ الريشِ، ولقد اصطادَ الملاّحونَ مـنْ هـذِه الطيـور أعـدادًا كثيرةً، كما شاءَ لهم هَوَاهم، وسمعُوا لها أصواتًا استنكروهَا، واستقبحُوا سماعهَا، لأنها كانتْ أشبهُ بأصواتِ الحميرِ!

ولم تكنْ هذِه الطيورُ العجيبةُ غـيرَ طـيرِ «البنجويـن الإفريقـى»، أو «بَطْرِيق الماء».

---

(١) الثغاءُ: صوتُ الشاةِ فى الأصْلِ. وقد استُعملَ هنَا لصوتِ تلكَ الحيواناتِ البحرية.

ولقد أقامَ البرتغاليونَ أصحابُ «فاسكو دي جاما» عَلى خليج «سان براس» «San Bras» هذا نَصْبًا[١] منَ الحجَارةِ، كما رفعُوا صَاريًا من صَوَارى السفنِ بجَانبه، ووضعُوا عَلاَمة على قمته. ولما غادرُوا المراسِي فى اليومِ التالِي شاهدُوا بأعينهم بضعةَ عَشَرَ منَ الزنوجِ، وقد عَكَفوا فى جِدٍّ عَلى تقويضِ مَا أقامه هؤلاَء المغامرونَ..!

وهمَّت السفنُ بمغادرةِ الخليجِ، واحتواهَا ماءُ المحيطِ بعدَ أن تزودَ الركبُ بحَاجته منَ الماءِ والوقودِ، وكانُوا على أملٍ أنَّ الريحَ سَتُعينهم على الرحيلِ، فلمَّا خيبتِ الريحُ ظَنَّهم عادُوا فى اليومِ نفسِه، ليضعُوا المراسِي على شطِّ الخليجِ منْ جَديدٍ..

وظلُّوا بالخليجِ بضْعَةَ أيام أخر حتَّى هبتْ ريحٌ مسعفة، فرفعُوا المراسِي ونشرُوا القلوعَ، وبينما هم فى طَرِيقِهم إذْ هبت عَليهم عاصفةٌ شديدةٌ، حَجَبت الرؤيةَ، واستحالَ عَلى كلِّ سفينةٍ أن ترى أختهَا، فلمَّا مَالت الشمسُ إلى المغيبِ لمحَ ربانُ السفينةِ «سان رافايل» ربانَ السفينةِ «بريو» وهى عَلى بعدِ عدَّةِ أميالٍ، واستعانَ الربابنةُ بالإشاراتِ الضوئيةِ على أن يتبينَ كلٌّ منهم سفينةَ صَاحِبِه، حتى لا تتفرقَ بهم السبلُ فى لجُجِ[٢] المحيطِ.

وفى أحدِ الأصبحَةِ من شهر ديسمبر سنة ١٤٩٧ رأى الملاَّحونَ المغامرونَ الأرضَ عَلى مَقْربةٍ منْ «جزائر الصليب» «Cross Islands»

---

(١) النَّصْبُ: العلمُ المنصُوبُ. والجمعُ: أَنْصابٌ

(٢) لجُج: الموجات العاليةُ وسط المحيطات.

وهى لا تبعدُ كثيرًا عنْ أقْصى ما وصلَ إليه «بارتلميو دياز» فى رحْلته التِى كشفَ فيهَا رأسَ الرجاءِ الصَّالح، وهنَا رأى خلفاءُ ذلكَ الرحالةِ المكْتشف العظيم، النصبَ الذِى أقامه تسجيلاً لرحْلته. ولكنهم لم يكُونوا أدركُوا بعد أنهم علَى الشاطئ الشرقى الجنوبى للقارة الإفريقية.

وهنَا وجدُوا بلادًا تختلفُ فى طبيعتهَا عما رأوه علَى الشاطئ الغربى، حتَّى لقد أُخِذوا بمنظرِ الغاباتِ الفاتنةِ الكثيفةِ، وعجبُوا منْ كثرةِ الماشيةِ وخصْب المراعى إلى حدٍّ لم يألفُوه منْ قبلُ، وكلمَا أوغلُوا السيرَ بسُفُنهم فى محاذاةِ الشاطئ رَأَوْا طبيعةَ الأرضِ تزدادُ جمالاً وازدهارًا، ورأوا الأشجارَ تزدادُ نماءً والتفافًا وارتفاعًا. وهنَا أدركُوا أنهم فاتُوا الغايةَ التى وصلَ إليها «دياز» منْ قَبْلهم ببضْعِ سنواتٍ، عندَ «ريو دا نفانت» «Rio do Infante» أو كما تُسَمى اليوم «نهر السمك الكبير» «Great fish River».

وأخذتْ ريحٌ عنيفةٌ تَحْمِلهم على السيرِ فى البحرِ علَى غيرِ دليلٍ، وبعدَ أكثرَ منْ يومٍ وليلةٍ وجدُوا أنفسهم ثانيةً أمامَ «جزائرِ الصليبِ» التى بلغَ بهم الوهمُ أنهم غادروهَا بمدًى بعيدٍ! ولم تكُن الريحُ هذه المرةَ هِيَ التِى أضلَّتهم، ولكنهَا التياراتُ البحريةُ القويةُ التى عُرف بها ذلكَ المكانُ منذُ ذلكَ الحينِ.

وفى اليومِ نفسِه بَدَءُوا الكَرَّةَ منْ جديدٍ ليمضُوا فى الطريقِ الذِى حَاولوه مِنْ قَبْلُ، وقدْ أعَانتهم ريحٌ طيبةٌ مواتيةٌ علَى أنْ

يتخَطوا عقبةَ التيــاراتِ الشــديدةِ، التِــى خَشــوا هَــذِه المــرَّةِ أنْ تختــمَ بالإخفَاقِ مَشْروعهم. وكأنَّ عنايةَ اللهِ شاءتْ لهم أنْ يمضُوا فى طَرِيقِهم إلى الأمامِ، حتى تَتِم فيهِم إرَادته إلى الغايةِ التِى كتبهَا لهـم فِــى سـجلِّ المكْتشفينَ.

عطاش إلى الماء ...

مَا أعجبَ المصائبَ وهى تأتِى فى مباهجِ الأعيادِ، ولو كانتْ فى ليلةِ الميلادِ! فى يوم ٢٥ ديسمبر - وهو يومُ مولدِ المسيحِ عندَ الغربييــنَ - جلَس روادُ المحيطِ إلى مائدةِ الغدَاء، فأكلُوا منْ هنىء الــزادِ، وشـربُوا منْ لذيذِ الشرابِ مَا أساغته فرحةُ العيدِ فِــى حُلُوقــهم. ولمـا فرغُــوا منَ الطعامِ، وتمتعُوا بأطيبِ الأحاديثِ التى ذهبــتْ فيــهَا ذكريَاتُــهم إلى وَطَنهم، وذهبت فيها آمالُهم إلى الهنــدِ وأحلامــهَا الجميلــةِ، كشــفُوا أنَّ صَارى السفينةِ «سان رافايل» التِــى كـانَ يقودهـَا «بـاولو دى جامـا» شقيقُ الملاحِ العظيمِ قــد أصيــبَ بعطــبٍ شــديدٍ، ولم يمنعْــهُم الأســفُ، من حسنِ الاحتيالِ، فإن الرجلَ يحتالُ فِى المــآزقِ[1] حتــى يخـرجَ منـهَا، وينجُوَ منْ أخطارهَا. فاحتــالُوا عَلــى معالجــةِ العطــبِ بمـا لاَ يتعطــلُ معـه سيرُ السفينةِ، حتى يتاحَ لهم إصْلاحـه إذَا بلغــتْ بـهم الأقـدارُ إلى مَرْفأٍ أمينٍ.

---

(١) المآزق: جمع مأزق وهو الموقفُ الضيقُ الذِى يقعُ فيه المرءُ.

ومضوا بينَ ساحلٍ يَلْجَئُونَ إليه، وبحرٍ يرتمُونَ فِى أَحْضانـه، وكـأنَّ المصائبَ تأبى أن تجىءَ فُرَادَى، فلمْ يَكْفِهم عطبُ الصارى حَتَّى انقطعَ حبلُ المرسَاة، فسقطتْ المرساة إلى أعماقِ المحيطِ!

ولم تستطعْ «سان رافايل» - وقد نُكبت مـنْ نـاحيتين - أن تتجـهَ إلى الساحلِ لترسُو، فذهبتْ فى غمَراتِ المحيطِ بعيدًا، حتى كَادَت مياهُ الشربِ العذبةِ تنفـدُ منـهَا. ولم يكـن بـدٌّ مـنْ أنْ ينفـدَ المـاءُ المخـتزنُ المحدودُ، عندَ قومٍ طوحَت بهم الغمراتُ إلى غيرِ حُدُود.. فـاضطرُّوا إلى طَهْوِ الطعامِ بالماءِ الملحِ، احتفاظًا بما فِـى أَوْعيتـهم مـنَ المـاءِ العـذبِ، الذِى كانَ يُوزع عليهم بحسابٍ دقيقٍ.

وهنا تحتَّمَ عَليهم أنْ يَبْحَثُوا عنْ مرفإٍ أى مرفأ، أمينًا كـانَ أم غـير أَمِينٍ!

* * *

ويبـدُو أنَّ العـامَ الميـلاَدى الجديـدَ - سـنة ١٤٩٨ - أرادَ أنْ يَفْجَـأَهم بكشفٍ جديدٍ؛ ففى يوم ١١ يناير منَ الســنةِ الجديـدةِ اكتشـفُوا علـى أرضِ السـاحلِ الشـرقى مَصَـبَّ نـهرٍ صغـيرٍ.. يَـا لرحْمــةِ الأقــدَار! إنهم ظِمَاء إلى الورُودِ[١]، فجَاءهم الماءُ العذبُ كأنه مَعَهم عَلـى ميعَـادٍ! فلماذَا لا يرسُونَ قربَ الشاطئ؟ مَا دَامت المرساةُ المفقودةُ الغائبةُ فى أعماقِ المحيطِ لا تمكنهم منَ الرسوِّ عَلى مَرفإٍ أمينٍ؟

---

(١) الورُودُ: هو الذهابُ إلى موردِ الماءِ للاستسْقَاءِ منه. ويقصدُ هنا مَصَبُّ النهرِ الصَّغيرِ.

ونزلَ الملاحونَ في قوَاربهم الخفافِ، ووَطِئت أقدامُهم - التي طالَ عهدهَا بالبر - أرضًا قد احتشدَ فيها جمعٌ كبيرٌ مِنَ الزنوجِ، مَا بينَ رجالٍ ونساءٍ. وقد امتازَ الرجالُ بالقوامِ الفارعِ، وظهرَ فيهم رجلٌ تبدُو عليهِ ملامحُ الرئيسِ.

وأرسلَ «فاسكو دى جاما» اثنينِ مِنْ رجَالِه، أحدهمَا «مارتن ألفونسو» الذِى كانَ له سابقُ خبرةٍ فى أرضِ الكنغو، ليستطلعَا أمرَ هذِه الجمُوعِ. ولقى الرسولَانِ البرتغاليان من حَفَاوة الزنوجِ بهما ما لم يكنْ يخطُر لهما ولا للركبِ كُلِّه فى حِسَاب..

وأحبَّ «فاسكو دى جاما» أنْ يجزِىَ الزنوجَ جميلاً بجميلٍ، فأهدَى إلى كبيرِهم الذِى تبدُو عليه آياتُ الرياسةِ، بزة[1] كاملة، وطربوشًا مراكشيًّا أحمرَ اللونِ، وسِوَارًا. فأعلنَ الرئيسُ حُسْنَ استعدادِهِ لأن يقدِّمَ إلى هؤلاءِ الغرباءِ كُلَّ ما يحتاجونَ إليه مِنْ مَعُونةٍ. وكانَ «مارتن» يقومُ بدور المترجمِ بينَ الفريقيْنِ..

وذهبَ «مارتن» وزميلُه فى صُحبةِ الرئيسِ الزنْجى إلى قريته داخلَ الأرضِ، بينما عاد «فاسكو» ورجالُه جميعًا إلى سُفُنهم.

ويَرْوى لنا «مَارتن» كيفَ كانَ فرحُ الرئيسِ بهدايَا البرتغاليينَ. ففى الطريقِ إلى قريتهِ، لبسَ الحلةَ التى أهْديت إليه، ووجَّهَ الحديثَ فى

---

(١) البزة: الثياب.



رضًا تامٍّ إلى أهلِ قَرْيته الذينَ وفدُوا عليهِ لرؤْيته :

- انظُروا الهدايَا التِى خُلعت علىّ!

وقد قابلَ أهلُه ذلك الصنيعَ بالتصفيقِ ثلاث مـراتٍ أو أربعًـا، كأنمـا يحيونَ شَيْخَهم الذِى حظَى بهذا العطـاءِ الجزيـلِ؛ ومـا زالُـوا يزفُّونـه بالتصفيقِ حَتَّى بلغَ قَرْيته. ولما فرغَ من هذا العرضِ الشائقِ الجميلِ فى حـدودِ قَرْيتـه عـادَ إلى بيتـه، ومعـه رسـولا «فاسـكو دى جامـا»، فآواهما فى غرفةٍ واسعةٍ، حيـثُ قـدمَ لهمـا فـى العشـاءِ صحنًـا مـن عصيدةِ الذرةِ العُويجـة - التى تكثُر فى تلك البلادِ - ودجاجةً سمينـةً،

كأنها إحدَى دجاجَاتِ البرتغَال!

ولم ينقطعْ - طول الليلِ كُلِّه - سيلُ الوافدينَ على بيتِ الرئيسِ، من الرجَال والنساءِ، ليشهدُوا بأَعْينهم نماذجَ منَ البشـرِ الذيـنَ قـذفَ بهم عَلى سَوَاحِلهم المحيط!!!

وفى الصباحِ جَاءهما المضيفُ وطلبَ إليـهما أن يعـودَا إلى السـفنِ الرَّاسِيَة.. وأمرَ اثنينِ مـنْ أتباعِـهِ أنْ يُرَافقاهمـا، وزودهمَـا بالدجـاجِ السمينِ، عَلى سبيلِ الهديةِ للملاَّحِ العظيمِ «فاسكو دى جاما» !

ولم يفته وهو يُوَدعهمَا أَنْ يقولَ لهمَا إنه سيرِى الهدايَا التِـى قُدِّمَـت إليه لرئيسٍ أعظمَ منه، وقد ظهرَ أنه يقصدُ به ملكَ هَذِه البلادِ.

وكان مائتانِ من أهلِ البلادِ فى ودَاعِ الرسولينِ عَلى شاطئ البحرِ، حيثُ ركبَا القاربَ الذِى كانَ فى انتظارهمَا للوصُولِ إلى السفُن.

أرض الناس الطيبين

كانت هَذِه الأرضُ أكثر مَا رآه الملاحونَ البرتغاليونَ ازدحامًا بالسُّكَّان، وقد أرْبى عددُ النساءِ فيهَا عَلى عَدَدِ الرجالِ إلى ما يبلغُ الثليْنِ فى تقدير الكاشِفينَ. وكانت البيوتُ مَبنية منَ القشِّ وَهَشيم[1] الزرعِ، ويحملُ الرجالُ عَلى أذْرعتهم القِسِيَّ الكَبيرة، والسهام المريشة[2] والرماح المحدَّدة النصَال. وكان النحاسُ أكثر معادنهَا، ويتخذُ الناسُ منه أساورَ ودَمَالجَ[3] وخلاخيل وحلَقات للزينةِ فى شُعُورهم المضْفُورة، كما كانَ يتخذُ القصدير فى تطعيمِ مَقَابض الخناجِرِ، وأغمادِ الحرابِ المصنوعَة منَ العاجِ. أما نسيجُ الكتَّان فقد كانَ موضعَ التقديرِ الكبيرِ عندَ أهلِ البلادِ، وكثيرًا مَا دفعُوا كميةً كبيرةً منَ النحاسِ فى سبيلِ الحصولِ على قميصٍ منَ الكتانِ.

وأقامَ الملاّحونَ هنَا خمسةَ أيامٍ تزودُوا خلالَهَا بالماءِ العذبِ الذى نَقَله إليهم - عَلى ظهرِ السفنِ - زُوَّارُهُم الوطنيونَ. ولم تطلْ إقامتهم بالقدر الذى يسمحُ لهم بأن يحمِلُوا منَ الماءِ العذْبِ ما يسدُّ حَاجتهم،

---

(١) هَشيم الزَّرْع: الشجرةُ اليابسَةُ الباليةُ.

(٢) السهام المريشة: التى ألصقَ عليهَا الريش.

(٣) الدُّمْلجُ، والدُّمْلوجُ: سِوَارٌ يحيطُ بالعضد. والجمع دمَالج، ودمَاليج.

فقد جاءت ريحٌ مُوَاتية حمَلَتْهُم علَى أَنْ ينتهزوهَا فرصةً مُلاَئمة للإبحار فِى سبيلِ هَدَفهم البعيدِ!

ولَقَى الملاحونَ فِى مقَامهم بهذِه الأرضِ مَا دَعَاهم إلى أن يسموهَا «أرضَ الناسِ الطيبينَ» «Land of Good People»، كما سمُّوا نهرهَا الصغيرَ: «نهرَ النحاس» «Copper River».

وسارَ المغامرونَ شمالاً حتى كشفُوا شاطِئًا وَطيئًا تُغَطيه غاباتٌ كثيفةٌ عَالية الأشجَار، وتابعُوا السيرَ حَتَّى اهتدُوا إلى مَصبِّ نهرٍ واسعٍ عُرِف فما بعد أنه نهر «كليمان». وَدَفَعهم فضولُ الكاشفينَ إلى أن يَعْرِفوا أينَ هم الآن، فألقُوا مَرَاسيهم، وَرأَوا أَنَّ السفينةَ «بريو» قَدْ سَبَقَتْهُم هناكَ!

ولم تكُن الأرضُ هنا مُغايرةً لطبيعةِ الأرضِ السالفةِ الذِّكر، إلاّ فيمَا يعلوهَا مِنْ غيَاضٍ[1] ومنَاقِع. والأشجارُ العاليةُ تحملُ ثمرًا جَنِيًّا وفَاكهةً شهيةً، هى أكثرُ غذاءِ الوطنيينَ.

والناسُ هنَا هُم الناسُ هناكَ؛ سودُ الألوانِ، فَارعُو القوامِ. يمشونَ عُراةً إلا من خِرقة منْ نَسيج القطنِ تَستر سَوْءَاتهم. وفى النساءِ مَلاَحةٌ فِى الوجُوه، لولاَ ما يُشَوهها منْ ثقبِ الشفاهِ فى ثلاثةِ مَوَاضع، حيثُ تُوضع فِى كلِّ ثقبٍ حَلَقةٌ صغيرةٌ منَ القصْدير.

---

(١) الغيَاضُ: جَمع غيضة وهى مُجتمع الشجر فى مغِيض الماءِ.

وسُرَّ هؤلاء المواطنونَ برُؤْية هؤلاءِ الغربَاء الوافدينَ، فأنزلُوهم فِى قَوارب غَرِيبة الشكلِ، وأوصَلُوهم إلى قراهُم الصّغيرة، ليحملُوا منها مَاءَ الشربِ الذِى كانَ دائمًا موضعَ تفكِيرهم وتَدْبيرهم.

ولما اطمأنّ البرتغاليونَ فى هــذِه الأرضِ يومــين أو ثلاثــة جــاءهم اثنانِ منَ الزنــوجِ تبــدُو عليــهما أمــاراتُ الريَاســة، وكــانَ فيــهما مــن الكبرياءِ والأنفَةِ ما رفضَا معه هدايَا الملاحينَ، احتِقَارًا لها واستِصْغارًا لشأْنها! وكانَ فى ملابسهمَا المزرْكشة وعمامتيهمَا الموشَــاتين بــالحريرِ ما يدلُّ عَلى ثرائهمَا. ومعهمَا شابٌّ ثالثٌ فَهِمَ البرتغاليونَ منه بالإشارةِ أَنَّ سفنًا كبيرةً كسُفنهم قَدْ مرت بالشَّاطئ منْ قبل ورآها رأْى العينِ. وهنا داعبَ الأملُ قلوبَ البرتغاليينَ واستبْشَروا بأنهم منْ غَايتهم عَلى طَرفٍ قريبٍ.

وقَضَى الملاحونَ فى مصبِّ نهر «كليمان» «Kiliman River» اثنــينِ وثلاثينَ يومًا، يَخْــتزِنُونَ منــه المــاءَ، وينظِّفــونَ الســفنَ، ويصلحــونَ صَارى السفينةِ «سان رافايل» الذِى كانَ قد تهشَّمَ علــى إثــرِ إعصــارٍ سابقٍ عنيفٍ.

ووقَعَ أغلبُ الملاَّحينَ هنــا فريســةً للمــرضِ، فقــدْ وَرمَــت أيديــهم، وانتفخَــت أقدامُــهم، وَنتَــأَتِ[1] اللّثــةُ مــنِ فــوقِ أسْــنَانهم، إلى حـــدٍّ لم يســتطيعُوا معــه أن يــأكلُوا طَعَامــهم، ولم يكــنْ هــذَا غـــير مــرضِ

(١) نتَأَ الشَّىءُ: ارتفَعَ وَبرَزَ فِى مَكَانِهِ. وَخَبُثَتْ رائحتُهُ.

«الأسقربوط» الذى يحدثه سوءُ التغذيةِ، والذى تعرضَ له روّاد البحار منذُ أقدمِ الأزمنةِ.

وأقامَ الملاحونَ هنَا نصبًا تذكاريًا أسموه «نصب سان رافايل»، تخليدًا للسَّفينةِ التى حمَلته، وهى إحدَى السفنِ التى شارَكت فى هذِه الرحلَةِ، وأسموا النهرَ نهر «البشرى الطيبة» «River of Good Tokens». واتَّجَه الملاحونَ فى أعماقِ المحيطِ إلى الشمالِ الشرقى، فاكتشفُوا ثلاثَ جُزر صغار فى وسطِ اللُّجَجِ. وقد غطّت الأشجارُ العاليةُ اثنتيْنِ منها، بينمَا بقيت الثالثةُ والصغيرةُ قاحلةً عاريةً. ولم تكنِ المسافةُ بينهَا علَى أبعادٍ كَثيرةٍ.

على أرض موزمبيق

يأبى الربيعُ الفاتنُ إلاَّ أنْ يطلعَ بسحرٍ جديدٍ. ففى شهر مارس سنة ١٤٩٨ بينما كانَ «نيقولا كويليو» ربان الباخرة «بريو» يحاولُ أنْ يدخلَ خليجًا منَ الخلجَان، أخطأَ الطريقَ، وكان الخليجُ يُؤدى إلى أرضٍ فى جزيرةٍ جديدةٍ، وحاولَ الملاحونَ أن يرسُوا سُفُنهم بناءً على إشاراتٍ منْ قواربَ كانت تُحَيِيهم، واقتربَ بضعةٌ منْ هؤلاءِ المواطنينَ يُغنونَ علَى النايات[1]، واقترحُوا علَى البرتغاليينَ أن يتقدمُوا فى الخليجِ قليلاً قليلاً ليستطيعُوا النزولَ علَى مرفأٍ أمينٍ.

(١) النَّاياتُ: جَمعُ نَايٍ. وهو آلةٌ مِنْ آلاتِ الطَّرب ينفخُ فيهَا فتحدثُ نغما شجيًّا.

وصعدَ هؤلاءِ الوطنيونَ إلى سفنِ البرتغاليينَ، فـأكلُوا مِنْ طَعَامـهم، وشربُوا منْ شرَابهم، ونزلُوا بعدَ أنْ ملَئُوا البطونَ..

وأراد «فاسكو دى جاما» أنْ يتعمــقَ الدخُولَ فـى الخليـجِ ليعـرفَ أىَّ صنـفٍ مـنَ النـاسِ ألقـتْ بـهم الأقـدارُ فـى طَرِيقـه. وكـانَ عَلــى «نيقولا كويليو» أنْ يختبرَ الأرضَ ويجس الأعماقَ عندَ مدخــلِ الخليـج، حتى يكونَ هاديًا للسفينتيْنِ الأُخريين منْ وَرَائه. وبينمَا هو يســتعدُّ للدخولِ اصطدمَ برأسٍ بارز فى البحرِ فانكسـرَ مقْبـضُ الدفـةِ بـينَ يَدَيه، وهنَا أدركَ الخطرَ فأدارَ السفينةَ ثانيةً إلى الماءِ العميقِ.

وألقَى البرتغاليونَ المراسيَ على بُعدِ ميلينِ مــنَ الأرضِ، ولم يكـنْ هؤلاءِ المغامرونَ يَدْرونَ بعد أنهم فِى «موزمبيق» «Mozambique».

ورأَى الزائرونَ فى أهلِ هـذِه الأرضِ حُمـرةً نحاسيةً فِـى ألوانـهم، ومتانةً فِى بناءِ أجْسَـامهم، وعرفُـوا أنـهم مُسـلمونَ، يعتنقـونَ ديـنَ محمدٍ (ﷺ) ، ويتكلمونَ لغةَ العربِ، ويرتدونَ ثيابًا من رقيـقِ الكتـانِ، ولطيفِ القطنِ، وهى مُزَرْكشة بالخطوطِ الملونـةِ الزاهيـةِ، ومُزَينـة بالوشْى الجميلِ، ويضعونَ عَلى رُءُوسهم «طَوَاقى» مُطَــرزة بأسـلاكِ الذهبِ وخيوطِ الحريرِ.

ويحـترفُ أهـلُ مُوزمبيـق التجـارةَ، ويتعـاملونَ مــع تجـار العــربِ الذيـنَ كـانَ لهـم فـى ذلـك اليـومِ بـالذاتِ أربـعُ سـفنٍ تجاريـةٍ راسـيةٍ عَلى الميناء، مُحَمَّلة بخالصِ النضار[1]، والفضّة، والقرنفلِ، والفلفــلِ،

---

(١) النضار: الذهب.

والزنجبيلِ، وخَـوَاتِم الفضّـة، فـوقَ كمياتٍ مـنَ اللآلـــئ، والجواهــرِ، واليواقيتِ.

وعرفَ البرتغاليونَ أنّ هذِه النفائس والجواهر والأفاويـه[1]، وكريـم المعادنِ - عدَا الذهبَ - تردُ مـنْ بـلادِ الهنـدِ التِـى يقصِدُونـها؛ فسـالَ لُعَابهم، وتحركَت أشـوَاقُهم، وهـاجَت ذكريَاتُـهم لهَـذِه الأرضِ البعيـدةِ، التِى يقومُ تجارُ العربِ بنقْلِ متاجرهَا إلى أسواقِ العالمِ المعروفِ فى ذلكَ الزمانِ!

سمعَ البرتغاليونَ أكثرَ منْ هذَا - والشوقُ يَحْرِقهم! - أنَّ تلكَ البلادِ البعيدةِ التى يقصدُونها تكثرُ فيهَا هذهِ النفائس كـثرةً لا يحتـاجُ معـهَا إلى شراءٍ! وأنَّ المرءَ العـادِى مـنَ النـاسِ يسـتطيعُ أنْ يجمـعَ منـها فـى السلالِ مَا يشَاء!

آه! هنَا نسِىَ البرتغاليونَ المغامرونَ أهوالَ البحرِ، وعَصْفَ الريـاحِ، وضَرَاوةَ سـباعِ البحـرِ، وعُنْـفَ التيـارات البحريـة، والحاجـةَ إلى المـاءِ العذبِ فـى غَمَـرَاتِ المحيـطِ، ودَاءَ الأسـقربوطِ الـذِى يُشـققُ الشَّـفَةَ، ويبرزُ اللّثة، ويورّم الأيدِى والأرجُل!

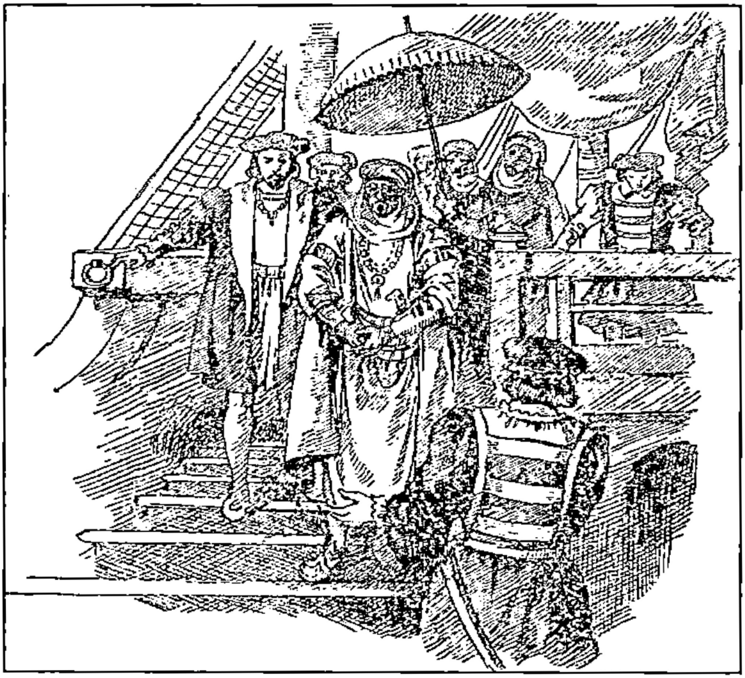
نعم هنا نَسُوا كُلَّ شىءٍ! حتى تلكَ المؤامـرةِ التِـى كـانَ قـد دبرهَـا بعضُهم بعدَ بلوغِ رأسِ الرجاءِ الصَّالح بقليلِ، ليرغمُوا «فاسكو دى جاما» على العودةِ بهم إلى وطَنهم وهم فى مُنتصفِ الطرِيق!

---

(١) الأفاويه : التوابل.

إنهم الآن فى طَريقهم إلى أرضِ اللّآلئِ والجواهرِ والأفاويهِ والثراءِ الكثيرِ! فلمَ لا يصْبرونَ، أو علَى الأقلِّ، يُوطِّنونَ النفسَ على الصبر وتحَمُّلِ وَعْثاءِ[1] الطريقِ؟

وكانَ معهم ملاّحٌ يعرِفُ قليلاً منَ العربيةِ ويفهمهَا حينَ يسمعهَا، فسمعَ من أنباءِ الهندِ ما أكَّدَ لهم ما سَمِعوهُ قبلَ مُغَادرتهم ميناء لشْبونة.



(١) وَعْثاءِ الطريق: مَشَقّات الطّريق ومَتاعبه.

غارات البرتغاليين

كانَ يحكُمُ موزمبيق فِى ذلكَ الزمانِ حاكمٌ مُسلمٌ يُلقَّبُ بالسُلطانِ، وكثيرًا ما صَعَدَ عَلى ظهرِ السفنِ البرتغاليةِ الثلاث مَصْحوبًا برجالِ حَاشيته، وقدْ بالغَ الملاّحُ الأعظمُ فِى إكْرامه، وأولمَ له منَ الوَلاَئِمِ مَا حفَلَ بِشهى المآكلِ؛ وقدّمَ له ألوانًا منَ الهدايَا كالقَلاَنِسِ[1]، والثيابِ الفارسيّة الغاليـةِ، والمرجانِ وَغَيرهَا، مما حصلَ عليه من أسواقِ مُوزمبيق؛ ولكنْ مَا قيمةُ هذِه الهدايَا إلى سلطانٍ عنده منهَا ومنْ أشباههَا الكَثير؟ لقد قابلَ السلطانُ هذِه الهدايَا بعينِ الازْدِرَاء! وبَاهَى بأنه لا يقيمُ لَهَا وَزنًا! ورغبَ لو قُدِّمت إليه الثيابُ القرمزيةُ الزاهيةُ! التِى لم يكنْ فى حَوزةِ البرتغاليينَ منهَا كثيرٌ ولاَ قليلٌ!

وعَلى الرغمِ منْ ذلكَ الإبَاء فقد صممَ الملاحُ «فاسكو» عَلى أن يقدمَ للسلطانِ المسلمِ منْ كلِّ ما تحمِلُه سفَائِنُه[2]، ولعلّه اتبعَ فِى ذلكَ المثلَ العربىَّ الشهيرَ: «خيرُكُم منْ جَاد بما عِنْدَه»!!

وفِى يومٍ منَ الأيامِ دعَا «فاسكو دى جاما» سلطانَ مُوزمبيق إلى وليمةٍ شهيةٍ حَفَلت بالتينِ والحلوى التِى كانَ السلطانُ يحبهَا حبًّا جمًّا؛

---

(١) القلانس: جمع قَلَنْسُوة، وهى لباسٌ يُوضعُ على الرأسِ.

(٢) السَّفِينَةُ: الفُلْكُ. والجمع: سُفُنٌ، وسَفَائِنُ.

وعندمَا ساغ الطعامُ فــى حلـقِ الضيـفِ المسـلمِ سـأله «فاسـكو» أن يتفضّلَ فيقدمَ إليــه رَجُلـين يصحبـانِ الركـبَ المخـاطرَ فِـى البحـار ليدلاَّه عَلى الطريقِ إلى الهندِ. وقَبِلَ السـلطانُ طلـبَ القـائدِ البرتغـالى عَلى شروطٍ اتفقَا عليهَا؛ وكانَ من شروطِ الملاحِ الداهيةِ أنه إذَا نزلَ أحدُ الدليلينِ إلى البرِّ فإنَّ الآخرَ يبقَى عَلى ظهرِ البحْرِ!

وفــى العاشـرِ مـنْ شـهرِ مـارس نَشَـرت السـفنُ شـراعهَا، ورمَـت المراسِيَ فى الماءِ قريبًا منْ جزيرةٍ مُجَاورة، حيـثُ أُقيـم عَلـى ظـهور السفنِ الثلاثِ حَفْلٌ دينى كبيرٌ. وانتهزَ أحـدُ الدليلـينِ هَـذه الفرصـةَ السـانحةَ فـنزلَ إلى الجزيـرةِ وآثـرَ البقـاءَ فيـهَا، ورفـضَ العـودةَ مَـعَ البرتغاليينَ! وأرسلَ القائدُ الجرىءُ قَـاربيْنِ مُزَوديـنِ بالسـلاحِ للبحـثِ عـنْ هـذَا الدليـلِ الهـاربِ، وركـبَ هـو نفسُـه أحـدَ القـاربينِ، وأمــرَ «نيقولا كويليو» أن يركبَ القاربَ الآخرَ.

وفى خلالِ البحثِ جاءتْ بضعةٌ منَ القـواربِ مـنْ أرضِ الجزيـرةِ، وهــى مشـحونَةٌ بالرجَـالِ المسـلحينَ بالقِسِــيِّ والسـهامِ الطويلــةِ والتروسِ القويةِ، وأمــرُوا - بطريـقِ الإشـارةِ - القـائدَ وزميلَـه بـأنْ يبادرُوا العودةَ إلى المدينةِ. ولم يجدْ «فاسكو دى جاما» بُــدًّا مـنْ إطـلاقِ النيرانِ عَلى هَذِه القواربِ.

وكانَ «باولو دى جاما» - شقيقُ الملاّحِ الجرىءِ - باقيًا فــى السفنِ الثلاث يحرسهَا منْ أنْ تصابَ بسوءٍ، فلمْ يكـدْ يسـمعُ الطلقـاتِ حتـى أدارَ دَفَّـةَ السـفينةِ «بريـو» ليخـفَّ إلى النجـدةِ، وأطلـقَ مـن نــيرانِ

المدفعيةِ مَا أثارَ الرعبَ فى قلُوبِ العــربِ، الذيـنَ أسـرعُوا إلى الأرضِ قبلَ أنْ يُدْركَهم الطالبونَ..

وعادَ البرتغاليونَ إلى مَرَاسيهم بعدَ حادثِ الهربِ العجيبِ.

ودهـشَ البرتغـاليونَ مـنْ سـفنِ العـربِ فـى هـذِه البـلادِ صناعــةً وحـجمًا، فألواحُـهَا غـيرُ مُسَـمَّرة بمسـاميرَ، وقلوعُـهَا مصنوعــةٌ مـنْ أليـافِ جـوز الهنـدِ، وملاحُوهَـا يحملـونَ معـــهم البوصْلـــة البحريــةَ، والمزَاولَ[1]، والخرائطَ الجغرافيةَ.

وقايضَ البرتغاليونَ ببعضِ مَا معهم مـــنَ السـلعِ عَلـى ثمار جـوز الهندِ، والقثّاء، والخيار، والشّمام التى رأوهَا هنا بكمياتٍ وَافِرة.

وأقامَ البرتغاليونَ فى جَزِيـرة «سـان جـورج» بعـضَ الوقـتِ، وإذَا برسالةٍ تأتيهم منْ سلطانِ مُوزمبيق بأنه يودُّ أنْ يكُونـوا معـه علـى سَلَامٍ، وأنْ تقومَ العلاقةُ بينه وبينهُم عَلى أساسٍ مِنَ الصَّدَاقة، وكان سفيرُه إليهم أحد أشراف العربِ، الذينَ كانُوا - فى الحق - عَلى فزعٍ منْ هؤلاءِ الغرباءِ الوافدينَ.

وَلَمَّا هَمَّ البرتغاليونَ بالرحيلِ جريًا وراءَ هَدَفهم الأصيـلِ، وجـدُوا الريحَ غيرَ مُوَاتيةٍ لهم، فرأوا أن لا مناصَ منَ الدخولِ ثانيةً إلى مينـاء مُوزمبيق للتزوّدِ بماءِ الشربِ الذِى كانُوا فى حَاجةٍ إليه، لأنَّ المـاءَ فــى

---

(١) المِزْوَلَةُ: الساعةُ الشَّمْسيَّةُ التِى يُعيَّنُ بـها الوقـتُ بظـلِّ الشـاخص الـذى يُثبت عليها. والجمع مزَاولُ.

غيرِ موزمبيق كان آسنًا[1] لا يصلحُ لشرابٍ، ولا ينفعُ لطعامٍ. ودخلُـوا الثغرَ التِّجارى العتيـقَ عنـدَ الأصيـلِ. وأخـذ القـائدُ نفسُـه، والربـانُ «نيقولا كويليو»، وبعضُ رجالهم يبحثونَ عنِ المـاءِ، حتـى امتـدَّ بـهم البحثُ إلى منتصفِ اللّيل.

وكانَ معهم دليلٌ عربىٌّ عَرضَ خِدْمته عليهم بما لهُ منْ أسفار فى البحـرِ الأحمـرِ والمحيـطِ. ولم يكـنْ لـه معـهم غـيرُ أيـامٍ، فانتـهزَ هـذه الفرصةَ - فرصةَ البحثِ عنِ الماءِ - لينجوَ بنفسِه منهم بعدَ أنْ مَـلَّ المقامَ معهم!

وظلُّوا يبحثونَ عنْ مَوْردٍ للماءِ، وطالَ بهم البحـثُ حتـى أشـرقتْ شمسُ اليومِ التالِى، فعادُوا إلى السفنِ بغيرِ ماءٍ ولا سِقاءٍ!

وفى مساءِ اليومِ عادَ الظامئونَ الباحثونَ عنِ الماءِ إلى بحثِهم، فلمَّـا قاربُوا مَوْردَ الماءِ العذبِ رأوا جماعةً منَ الرجالِ عَلى الشاطئ ومعـهم حرابهم ورماحهم ليمنعُوهم منَ النزولِ. وهكذا يفعلِ الشَّكُّ والريبةُ فىالنفوسِ؛ فإنهم لم يمنعُـوا المـاءَ عـنِ البرتغـاليين إلا لخوفِهم منـهم وريبتهم فيهم!

وهنا أمـرَ المـلاحُ العظيـمُ بـإطلاقِ النـيرانِ عَلـى الوطنيـينَ حتـى يتمكنَ هو ورجالُه منَ النزولِ عَلى البر لورودِ[2] الماء، ولم يكدْ يســمعُ

---

(١) أسنَ الماءُ: تغيّرَ فَلا يُشْرَبْ.

(٢) وُرُود الماء: الوصُولُ إليه.

هؤلاءِ الطلقات حَتَّى وَلّوا إلى الغابةِ هـاربينَ، وأخـذ البرتغـاليونَ مـنَ الماءِ العذبِ ما كَانُوا يَشْتهونَ.

وفى صباحِ يومٍ منَ الأيامِ جَاءهم عَربىّ يُنْذِرهم بأنـهم إذَا أمعَنُـوا فِى طلبِ الماءِ أكثرَ مِنْ هذَا فإنهم يتحمَّلُونَ وحْدهم نتائجَ مخاطرتـهم التِى لا تعودُ عَليهم بنفعٍ. فلمَّا سمعَ «فاسـكو دى جامـا» هـذَا التـهديدَ الملفوفَ صَمَّمَ عَلى أن يَرِدَ الماءَ مـهمَا كـانتِ النتـائج، حتـى لا يُظـهِر الضعفَ أمامَ مُنْذِريه.

وأقامَ العربُ حواجزَ شائكةً منْ أغصانِ الأشجار، وكانتْ فِـى الوقـتِ نفسِه كأنها سِتَارٌ كثيفٌ يحجبُ مَا ورَاءَه منَ الوطنيينَ. وأخذُوا يذرعـونَ الشـاطئَ عَلـى مُـوَازاة السـاحلِ، وهـم مُسلّحونَ بالسيوفِ والحـرابِ والرمـاحِ والقسِىّ والمقـاليعِ، التـى أخـذُوا يقذفـونَ بـها الحجـارة علـى البرتغاليينَ. ولكنَّ نيرانَ هؤلاءِ كانت أشدّ منْ أنْ يقفَ أمامهَا الوطنيونَ، فوَلوا الأدبارَ خلفَ الحواجزِ التـى أقاموهَـا. واسْـتمرت المعركـةُ حاميـةً بينَ هؤلاءِ وهؤلاءِ قرابةَ ثلاثِ ساعاتٍ، وأسْفرت عَنْ قتيلينِ مـنَ العـربِ، أحدهمَا على شَاطئِ البحرِ، والآخر خلفَ المتاريسِ.

واسْتنفدت المعركةُ قدرًا كبيرًا مـنْ جـهودِ البرتغـاليينَ، فعـادُوا إلى سُفُنهم يريحُونَ أجسَـادهم المنهوكَـةَ، وَيَمْلَئُـونَ بُطُونـهم الخاويـةَ. ولم يكادُوا يفرغونَ منَ الطعـامِ، وينتـهونَ مـنَ الراحـةِ حتـى عَـادوا إلى قَوَاربهم ليبدَءُوا الحربَ منْ جديدٍ.. إنـهم يريـدونَ أنْ يـأخذُوا بعـضَ الأَسْرى منَ العربِ.

وبحَ البرتغاليونَ فى مُطاردةِ سَفينتين مِنْ سُفنِ العربِ، يملكُ إحداهمَا الشريفُ العربى فِى مُوزمبيق، وكانتْ محملةً بصُنوفِ المتاعِ والأثاثِ، أمَّا الثانيةُ فكانَ عَلى ظهرهَا أربعةٌ منَ الزنوجِ، أو منَ العربِ، كما يختلفُ فى ذلكَ مُدوِّنُ الرحلةِ بينَ حينٍ وحينٍ.

أما السفينةُ التى كانَ فيها هؤلاءُ الأربعة فقدْ أسرهَا «باولو دى جاما» بمنْ عليهَا منَ الوطنيينَ، وأما الأُخرى التى تحملُ المتاعَ فقد تركهَا أصحَابُهَا حينَ بلغُوا الشاطئ، لينجُوا بأنفسِهم منَ الوقوعِ فى أسرِ المطَاردينَ.

وأخذَ البرتغاليونَ يفحصونَ المتاعَ الذِى نهبوهُ منْ سفينةِ العربِ، حتى يقتسمُوا الغنيمةَ بينهم؛ فوجدُوا فيه قماشًا منَ القطنِ، وسلالاً منْ سَعَفِ النخيلِ أو النارْجيل، وَقُدُورًا كبيرةً مملوءةً بالسمنِ، وقواريرَ مملوءةً بالعطور والماءِ المعطرِ، وكتبًا فى الفقهِ الإسْلامى، وصُندوقًا مملوءًا بلفافاتٍ منْ نسيجِ القطنِ الرقيقِ، وشبكةً منْ غزْلٍ مَتينٍ، وسلالاً وجِفَانًا[1] مَشْحونة بحبوبِ الذرةِ العويجةِ التِى تنبتُ بكثرةٍ فى هَذه البلاَد.

واحتفظَ «فاسكو» بالكتبِ العربيةِ ليحملَهَا معه عندَ عودتهِ إلى بلاَدِه ليقدمهَا إلى ملكِ البرتغالِ، أما بقيةُ المتاعِ والزادِ فقد قسَّمه القائدُ عَلى مَلاَّحيه جميعًا فى السفنِ الثلاثِ.

---

(١) الجَفْنَةُ : القَصْعَةُ. والجمع : جِفَانٌ. وجفَنٌ.

وكأنَّ الغنائمَ والغاراتِ قد أغْـرَتْ[١] المـلاحَ البرتغـالى المغـامرَ، فقـامَ بحملةٍ جديدةٍ علَى إحْدَى القرى، وكانَ الوطنيونَ يتحاشونَ أن يجمعُوا جُمُوعهم علَى الشـاطئ حتـى لا يصـيرُوا هدفًـا لنـيرانِ البرتغـاليينَ، وعلَى الرغمِ منْ ذلكَ لم يتورَّعْ هؤلاءِ منْ إطلاقِ المدافعِ، ثم عادُوا إلى سُفنهم آمنينَ. وتركَ البرتغاليونَ المدينةَ، وألقُوا مَرَاسيهم قريبًـا مـنْ جزر سَان جُورج الصَّغيرة، حيثُ بقُوا هناكَ ثلاثةَ أيـامٍ ينتظـرونَ أن تهبَّ عليهم ريحٌ طيبةٌ تحملُهم إلى الهدفِ البعيدِ..

وطَوَاهم البحرُ أيامًا أُخرَ، ما بينَ ريـحٍ عـاصفٍ، وتيـاراتٍ شـديدة القُوة، إلى أنْ بلغَ بهم المطافُ فِى أولِ يومٍ منْ أبريل إلى مجموعــةٍ مـنَ الجزر قربَ الشاطئ، وقدْ أسموا أُولى هذِه الجزر «جزيرة الرجـل المجلـود» «The Isle of the Flogged One» لأنـهم جلَـدُوا عليـهَا الدليـلَ العربـى الذِى قررَ لهم أنَّ هــذِه الجزيـرة هـى أرضُ القـارةِ الإفريقيـة نفسـهَا! وقد أيقنُوا أنه ضَلَّلهم - لحاجةٍ فــى نفـوسِ العـربِ - فكـانَ جـزاؤه الضرب بالسَّوطِ..

وقد لفتتْ كثرةُ هذه الجزر أنظارَ البرتغـاليينَ، كمـا لفـتَ نظرَهُـم شدةُ التشـابهِ بينـهَا جميعًـا إلى حـدٍّ لم يسـتطيعُوا معـه التمييزَ بـينَ جزيـرةٍ وأُخـرى. وكـانت مُزدحمـةً بالسـكانِ الذيـنَ يحترفونَ البحْـر، ويشتغلونَ بالقواربِ التِى تَجْرى دائمًا بينَ هذِه الجزر وبـينَ الشَّـاطئ الإفريقى.

---

(١) أغرى فُلانًا: حمله على العداوة، أو على عمل شيء.

ومضَتِ الأيامُ بالركْبِ المغامرِ تَدْفعهم موجةٌ وتجْذِبهم أُخرى. حتى لحُوا وهم عَلى ظهورِ السفنِ بلادًا واسـعةً مُنْبَسِطَةً، وعلى مَقْربـةٍ منها جزيرتان أحاطَت بهما مخاضَاتٌ[1] من الماءِ الضَّحل، الذِى لا تقـدرُ السفنُ الكبيرةُ عَلى خَوْضه خشيةَ الجنُوح.

وكانت الريحُ منَ الشدة هنَا بحيثُ لم يَسْـتطع الملاّحـونَ الكاشـفونَ أنْ يرسُوا عَلـى واحـدةٍ مـنْ هـذِه الجـزر، وعرفُـوا مـنْ دَليلـهم أنـها تسكنهَا كثرةٌ مِنَ النصَـارى، فصمَّمُـوا عَلـى المضِـى شمـالاً، قـاصدينَ مدينةَ «منبسة» «Monbasa» التِـى عرفُـوا مـنَ الأدلاءِ والخـبراءِ أنـهم منـها عَلـى مَسَافة أيـامٍ أَرْبـع، إذَا كـانت الريـحُ رُخَـاءً[2]، والظـروفُ مُوَاتيةٌ.

هدايا سلطان منبسة

وبلغَ البرتغاليونَ ثغرَ منبسة، فألقوا مَرَاسيهم فِى الماءِ، ولكنهم لم يدخلُوا الميناءَ نفسَه. وَمَا كَادت تقـعُ عَليـهم عيـونُ أهـلِ هـذَا الثغـرِ حَتى وصلَ إليهم قاربٌ ذُو شراعٍ مُربعٍ يحملُ عددًا مـنَ العـربِ، وقـد زُينت سفنُ الثغرِ بالأعلامِ الزاهيةِ، احتفاءً بمقدمِ هؤلاءِ الوافدينَ. ولم يشأْ «فاسكو» ورجَالُه أن يكونُوا أقلَّ مجاملة مـنْ أهـلِ البـلادِ فَزَيـنـوا سُفُنَهُم الثَّلاث زينةً فاقتْ زينةَ الوطنيينَ.

---

(١) المخَاضُ: الموضـعُ القَليـلُ المـاء الـذى يعْـبُرُ فيـه النـاسُ النَّـهر مُشَاة ورُكْبانًـا. والجمع: مخَاضٌ. ومخَاوضُ.

(٢) الرُّخَاء: الريحُ اللَّيِّنة.

وكانَ غرضُ «فاسكو» من هذا المهرجانِ البحْرى الجميلِ أن يتوددَ إلى قلُوب العربِ والمواطنينَ، لعلّه يظْفرُ منْهم بجماعةٍ يدلّونه على الطريقِ، وخاصّةً بعدَ مرضِ القِلّةِ التى كَانتْ معه.

وطالما تمنَّى «فاسكو» ورجالُه أن يجِدُوا فى مدينةِ منبسة هؤلاء المسيحيين الذينَ حدَّثهم عنهُم الأدلاَّءُ منْ قبل، ولكنهم لم يجِدُوا فى هذا الثغرِ التجَارى إلا أقوامًا يدينونَ بالإسْلاَم.

وفى منتصفِ ليلٍ منَ ليالِى الصيفِ تَطلَّعَ البرتغاليونَ حَوَاليهم وهم على ظهرِ سُفُنهم الراسيةِ فى الماءِ، فإذا قاربٌ يحملُ أكثرَ منْ مائةِ رجلٍ مُدَجَّجينَ بالخناجرِ والسيوفِ القصيرةِ والتُّرُوس. ولما قاربُوا السفينةَ «سان جابرييل» التى كانَ يقودهَا «فاسكو دى جاما»، أرادُوا أن يصعدُوا عليهَا جميعًا وهُم فى هذِه البزةِ الكَاملةِ منَ السِّلاَح. ولكنَّ المكتشِفَ البرتغالى الدَّاهيةَ لم يأذنْ إلا لبضعَةٍ منْ أعيَانهم يمثلُونهم أمامَه. وظلَّ الممثلونَ أكثرَ منْ ساعتينِ يتفاهمونَ بالإشارةِ تَارةً، وببعضِ الكلماتِ الّتِى فُهِمتْ - بصُعُوبة - منْ هنَا ومنْ هناكَ تَارةً أُخرى، حَتى انتهَت الزيارةُ التِى فَهِمَ منهَا البرتغاليونَ أنها كَانت للاستِطْلاَع، واستكشَافِ ما وراءَ هذِه السفُن الثلاَث الراسيَات منْ أغراض!.

وأرادَ سلطانُ منبسة أنْ يؤكدَ للملاَّح البرتغالى الجرِىء صدقَ نيتهِ فأهدَى إليه بعضَ الأغنامِ، وقدرًا كبيرًا منْ فاكهةِ البرتقالِ، وكميةً

منَ اللَّيمونِ، وحِمْلا من قصَبِ السكرِ، وخاتمًا كأنه عهْد الأمانِ! وأكَّد له أنه سيجدُ فِي الميناءِ - حينَ ينْزله - كُلَّ ما هـو فـى حاجـةٍ إليـهِ. وكـان يحمـلُ هـذِه الهدايَا مـنَ السـلطان المسْلمِ اثنـانِ مـــن رَعَايــاه المسيحِيينَ.

وردَّ «فاسكو دى جَامَا» عَلى الهديةِ بمسبحَةٍ منْ حَبِّ المرجَان، مخبرًا السلطانَ أنه ينوِى أن ينزلَ الميناءَ فى اليومِ التَّالِى.

وأرسلَ «فاسكو» اثنينِ منْ رجالهِ إلى السلطانِ ليؤكـدَا لـه حسـنَ نيةِ البرتغاليينَ، وسلامةَ قصْدهم، وأنهم قومُ سـلامٍ لاَ قَـوْم حُـروب! فلمَّا نزلَ الرسولاَن إلى البر تبعتهمَا جموعٌ منَ الوطنيـينَ حتـى بلغُـوا بهمَا أبوابَ القصرِ السلطَانى.

ولم يكُن الوصولُ إلى مَقَر السلطانِ بالقصرِ شيئًا سَهْلاً، فقـد كـانَ عَلى الرسُولين أنْ يمرا خلالَ أربعةِ أبوابٍ ضخامٍ عَلى كلٍّ منها حارسٌ يحملُ فى يده سيفًا مسلولاً معدًّا للقتال.

وأكـرمَ السـلطانُ وفَـادَة(١) الرسُـولينِ، وأمـرَ أن يُعَـدَّ لهمـا برنَـامجٌ لزيارةِ المدينةِ ورُؤْية معالمهَا، ومرًّا بالزيارةِ عَلى منزلٍ لاثنينِ منَ تجَـار النَّصـارى، فلمَّـا فرغَـا مـنَ الزيـارةِ أعادهمَـا السـلطانُ إلى السـفنِ البرتغاليةِ الراسيَة، مُحملـين بأحمالٍ مـنَ القرنفـلِ، وحَـبِّ الفلفـلِ، والقمحِ وغيرهَا منَ السلعِ التِى وَدَّ السلطانُ أن يملئُوا سفنَهْم بهَا !

---

(١) وَفدَ عَلى القوم وإليهم: يَفدُ وَفْدًا، ووُفُودًا، وَوِفادَةً. والجمعُ وُفُود.

وفى اليومِ التالى - حينما هَمَّ «فاسكو» بأنْ يرسى سفنَهُ فِى الميناءِ نفسِه - خَشى أن يكونَ فى سُلوك بعض الأدلاَّء العربِ مَا فيه مُعاكسة له وإحبْاط لخططِهِ، وكانَ هؤلاءِ الأدلاَّء ممن أسَرهم «باولو دى جاما» فى ميناءِ مُوزمبيق. وأرادَ «فاسكو» أن يستجوبَ اثنينِ منْ هؤلاءِ العربِ ليلاً، فلجأَ إلى تعذيبهمَا حتى ينتزعَ منْهُمَا اعْترافًا، وكانت طريقةُ تعذيبهِ مما لا تُقِره قوانينُ الرحمةِ، ولا أصولُ المبادئِ الإنسَانية. فأمرَ أن يُصَبَّ عَلى جلودهمَا الزيتُ المغلى، واعترفَ الدليلانِ - تحتَ قساوةِ التعذيبِ وَوَحشيته - أنَّ النيةَ كانت مُبيتة لأسرِ البرتغاليينَ فى الميناءِ، انتقامًا منهم لما صَنعوه معَ العربِ والوطنيينَ فِى مُوزمبيق.

وكررَ «فاسكو دى جاما» عمليةَ التعذيبِ مرةً أُخرى، لعلَّه ينتزعُ منْ أفواهِ الدليلينِ اعترافًا جديدًا، فألقى أحدهمَا بنفْسِه فى ماءِ البحرِ وهو مربوطُ اليدينِ، وتبعهُ الآخرُ عندَمَا لَمعَتِ الخيوطُ الأُولى مِنَ الصباحِ..



العرب يتوجسون شرًا

لم يطق العربُ صبرًا على فعلاتِ البرتغاليينَ. والحقُّ أنهم كَانوا يتوجَّسُونَ شرًّا منْ هؤلاءِ القومِ الوَافدينَ، ولم يَطْمئنوا إليهم لحظةً منذُ رأَوْهُم، والآن قدْ تأكَّدَ لهم سوءُ نِياتهم، بما صَنَعوه أخيرًا معَ الدليلينِ العربيينِ اللذينِ جلبوهُما مع غيرهمَا منْ مُوزمبيق.

وَأسَرَّ العربُ فِى أَنفسِهم أمرًا، وأعدُّوا العدّةَ للانتقامِ منْ هؤلاءِ القساةِ الطَّامعينَ. وفى منتصفِ إحدَى اللَّيالِى ظَهرت عَوَّامةٌ تحملُ عددًا عديدًا منَ العربِ، واقتربَت منْ سفنِ البرتغاليينَ، ونزلَ منها الرجالُ يعومونَ فى مهارةٍ وخفةٍ كأنهم الحيتانُ، واتجه بعضُهم إلى السفينةِ «بريو» كما اتجهَ البعضُ الآخرُ نحوَ السفينةِ «سان رافايل».

وبدأَ العربُ يغوصونَ تحتَ الماءِ ويَطْفونَ، فلمَّا بلغُوا السفنَ أخذُوا يقطعونَ حبالها فى خفةٍ وسرعةٍ، حتى ظنَّ الحراسُ الليليونَ الساهرونَ فى ظلامِ الليلِ ووحشةِ البحرِ أنَّ نوعًا من سمكِ «التونة» الكبيرِ هو الذِى يقطعُ الحبالَ! فلما تبينُوا خطأَهم صاحُوا، واستيقظَ الربابنةُ والبحارةُ، فإذَا هم يرونَ العربَ السباحينَ قريبينَ من قلُوعِ السفنِ يحاولونَ تمزيقهَا، ومنَ الصوارى يحاولونَ تحطيمهَا.

فلمَّا خشى العربُ عَلى أنفُسِهِم أن يقعُوا فىَ يدِ البرتغاليينَ، آثروا أنْ ينزلقُوا إلى ماءِ البحرِ فى خفةٍ، وَطَوتهم اللججُ فِى الأعماقِ، لأنهم فِى الغوصِ فِى بطنِ الماءِ، أَمْهر منهم فى العومِ عَلى سَطْحه.

ولم يهدأ العربُ لحظةً عنِ الانتقامِ بمثلِ هَذِه الطرق، حتى أزعجُوا البرتغاليينَ. ولكنَّ هؤلاءِ احتملُوا كُلَّ هذِه المنغّصَاتِ يومينِ أو ثلاثًا لعلَّهم يَظْفرونَ ببعضِ الأدلاَّءِ الذينَ يصحَبونهم ليدلُّوهم عَلى الطريقِ إلى الهندِ.

وفى صباحِ يومٍ نشرَ البرتغاليونَ قلُوعهم فِى طَريقِهم إلى الهدفِ المنشُود، فلمَّا كانتِ الريحُ ساكنةً سكونًا لا يستطيعونَ معه مضيًّا فى البحرِ، اضطرُوا أنْ يلْقوا المراسى فى مكانٍ قريبٍ منَ الشاطئ الإفريقى يبعدُ عنْ منبسة ثمانية فراسخ. وفى فجرِ اليومِ التالى رَأَوْا قاربينِ فى عرضِ المحيطِ عَلى بعدٍ منهم، فحاولُوا مُطاردتهما لعلهم يأسرونَ منْ رجالهمَا منْ يجدونَ فيه دليلاً عَلى الطريق.

ونجحَ المكتشفونَ فى هذِه القرصنةِ البحريةِ التى أَدَّت إلى نجاحٍ كثيرٍ منَ الاستكشافَات! فبينما هربَ منهم أحدُ القاربيْنِ إذَا بالآخرِ يقعُ فِى قبضَتهم، وإذَا هم يجدونَ فيه منَ الغنائِم والسبايَا سبعةَ عَشر رجلاً، وأثقالاً منَ الذهبِ، وأحمَالاً منَ الفضةِ، وقدرًا كبيرًا منَ المُؤَنِ، كما وجدُوا امرأةً عربيةً شابةً، عرفُوا أنها زوجَة لأحدِ أمراءِ العربِ فِى هذِهِ البقاعِ. وذُعرَ العربُ منْ هذه الغارةِ التِى لم تكنْ لهم فى

حساب، فألقوا جميعًا بأنفسهم فى مياهِ البحرِ، حتى لا يقعُوا فى يدِ الأعداءِ. ولعلَّ حادثَ التعذيبِ بالزيتِ المغلى كانَ يرنُّ فِى آذانهم، أو يتمثلُ أمَامهم. ولكنَّ البرتغاليينَ التقطُوهم منَ البحرِ واحدًا بعدَ واحدٍ.

وعندَ غروبِ شمسِ ذلكَ اليومِ ألقى البرتغاليونَ مرَاسيهم عَلى مَرْمَى سهمٍ منْ أرضٍ تُسمى «ملندة» «Milandi» تبعدُ عنْ منبسة ثلاثينَ فرسخًا، وأَخْبرهم الملاَّحونَ العربُ الذينَ كانُوا أَسْرى هذِه الغارة البرتغاليّة أَنَّ فِى مدينةِ ملندة - أو فى ثغرهَا - أربعةً منَ السفنِ الكبار يملكهَا جماعةٌ منْ نصارى بلادِ الهندِ، وأنَّ هؤلاءِ قد يستطيعونَ أَنْ يزودُوا البرتغاليينَ بأدلاَّء منهم يطمئنونَ إليهم ويثقونَ فيهم، كما يزوِّدُوهم بالماءِ العذبِ والوقودِ وكل ما هم فى حَاجةٍ إليه.

وحرصَ «فاسكو دى جاما» عَلى أنْ يأخذَ منْ ملندة حاجَتَهُ منَ الأدلاءِ والوقودِ والماءِ، وألقى المراسى قربَ الثغرِ عَلى بعدِ نصفِ فرسخٍ منَ الأرضِ. ولكنَّ أهلَ البلادِ لم يجرءُوا أنْ يقتربُوا منْ سفنِ البرتغاليينَ وأوجسُوا منهَا شرًّا، فقد ترامَتْ إليهم أنباءُ حادثِ الغارةِ عَلى القاربِ، كما ترامَت إليهم أنباءُ رُكابه الذينَ وقعُوا أسرَى فى يدِ البرتغاليينَ.

وأرسلَ «فاسكو دى جاما» شيخًا عَربيًّا منْ أسراهُ إلى لسانٍ منَ الرملِ فِى مواجهةِ مدينةِ ملندة، حيثُ التقطَةُ قاربٌ منْ قواربِ

العربِ، وأوصَلُوه إلى سلطانِ ملندة، موفدًا منْ قبلِ «فاسكو دى جاما» ليؤكدَ له أنه لا يريدُ شرًّا بالبلادِ، ولا يودُّ أنْ يثيرَ حربًا، وأنه يودُّ مِنْ صميمِ القلبِ أن تقومَ علاقتُه معه علَى السلامِ والوئامِ. وعادَ الرسولُ إلى «فاسكو دى جاما» ومعه فارسٌ منْ فرسانِ السلطانِ، وواحدٌ منَ الأشرافِ، وثلاثٌ منَ الأغنامِ السمانِ هديةً لأميرِ البحرِ العظيمِ!

وكانَ الرسولانِ يحملانِ إلى «فاسكو دى جاما» تحيةَ سلطانِ ملندة، وفرحَه بما عَرضَه البرتغاليونَ مِنْ أسبابِ السَّلام، وموافقته علَى الدخولِ فى علاَقَاتٍ طَيبةٍ معَ البرتغاليينَ.وأبدَى السلطانُ استعْدَاده عنْ طيبِ خاطرٍ ليقدمَ إلى «فاسكو» كُلَّ ما يَطْلبه من الأدلاَّءِ والمساعداتِ التى يستطيعُ أن يقدمهَا، مما يدخلُ فى نطاقِ قُدْرته، وحدودِ طاَقته.

وردَّ «فاسكو دى جاما» بأنه يقترحُ أَنْ يدخلَ المدينةَ فى اليومِ التالِي حتى لا يَطُول به الانتظارُ فِى الماءِ. وتوكيدًا لحسنِ نيته، بعثَ معَ الرسولينَ هدايَا للسلْطان، منها مِعْطفٌ بُرتغالى، ومسبحَتَانِ منَ المرجانِ، وثلاثةٌ من الأطباقِ لغسلِ الأيدِى، وقبعةٌ، وأثوابٌ منْ نسيجِ القطنِ المخططِ، وأجراسٌ صِغَار..

وبعدَ هذَا الودِّ المبذول والهدايَا المتبادلةِ لم يكن هناكَ مفرٌّ منْ أنْ يقتربَ «فاسكو دى جاما» منَ المدينةِ. وفيَما تتهَادَى سُفُنه لهذِه الغايةِ، إذَا بالسلطانِ يبعثُ إليه على سبيلِ الهدية ستًا منَ الأغنامِ ومعها

كميةٌ مِنْ حَبِّ القرنفلِ، والكَمُّون، والزنْجَبيل، والفلْفل، وثمار جوز الطيب، وكلها منَ التوابلِ التى يسيلُ لها لعابُ الغربيينَ! والتى كانت تباعُ بأَغْلَى الأثمانِ فى أوربًا عنْ طريقِ البحرِ الأحمرِ وخليجِ السويس.

وكانَ معَ الهديةِ رسالةٌ منَ السلطانِ يقترحُ فيها علَى «فاسكو دى جاما» - فيما لوْ رغبَ فِى مُقَابلته - أَنْ يلتقيا فِى الماءِ عَلى مَقْربةٍ منَ الأرضِ حيثُ يركبُ السلطانُ قاربَه، وينزلُ الملاحُ البرتغالى فى أحدِ القَوَاربِ.

وحلّ الموعدُ المضروبُ للقاءِ الرجُلين، وكانَ ذلكَ بعدَ الغداء.فإذا بقاربِ سُلطانِ ملندة يقتربُ منْ سفنِ البرتغاليينَ، وإذا بالملاّح البرتغالى - فِى أحسنِ ثيَابه - ينزلُ إلى القاربِ الذى أُعِدَّ له. وكانَ القاربُ مُؤثثًا بالأثاثِ الأنيق.

ولما التقى الرجلانِ تبادلاَ من عباراتِ الودِّ، وكلماتِ الصداقةِ ما ملأ جوَّ المقابلةِ بمَعانِى السلاَم.

ودعَا السلطانُ «فاسكو دى جاما» لينزلَ إلى البر ويزورَ السلطانَ فى قَصْره زيارةً يجدُ فيها الراحةَ منْ جهةٍ، ويمنحه بهَا الشرفَ منْ جهةٍ أخرى، علَى أنْ يردَّ له السلطانُ الزيارةَ على ظهرِ السفينةِ «سان جابرييل». واعتذرَ «فاسكو دِى جَامَا» عَنْ تلبيةِ هذِه الدعْوة بأنَّ مليكَه لم يأذنْ له بالنزولِ فى الأرضِ، ولو أنَّ ملكَ البرتغالِ علم بأن «فاسكو» خالفَ أَمْرَهُ لغضبَ أشدَّ الغضبِ. ومَا أغنى شيخ البحار البرتغالى عنْ إغضابِ ملَكه العظيمِ!

وانبسطَت أساريرُ الرجلينِ، وانفســحَت أمامـهمَا شـعابُ الحديـثِ، وودَّ السلطانُ لو حملَ «فاسكو» معه فى عَوْدتـه مـنْ رحلتـه سـفيرًا منَ السلطانِ إلى الملكِ «عمانويل»، أو علَى الأقلِّ حملَ معه رسالةً إليه!

وأطلقَ «فاسكو دى جاما» سراحَ الأسرى منَ العـربِ الذيـنَ كـانُوا قَدْ أَلقوا بأنفسِهم فــى البحـرِ فـرارًا مـنَ الوقـوعِ فِـى الأسـرِ، وسُـرَّ سلطانُ ملندة بهذِه الصَّنيعَةِ التى قَدَّرهَا أَعْظَمَ تقديرٍ.

وطافَ السلطانُ فِى قَاربه بســفنِ البرتغـاليينَ التِـى كـانت تطلـقُ الصواريخَ تحيةً للضيفِ الإفريقى الكريمِ!

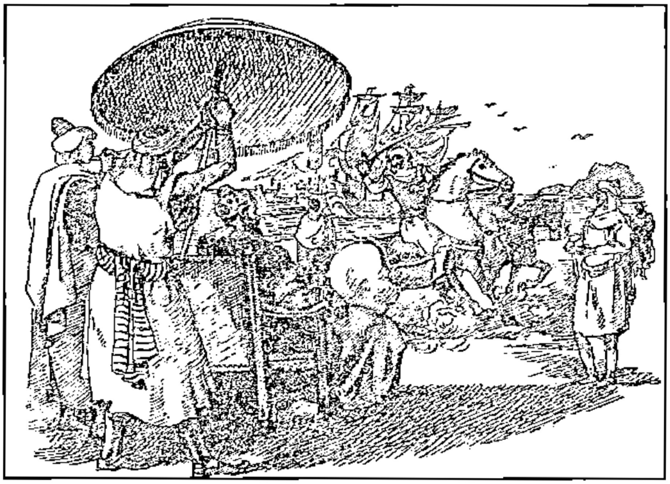
وغادرَ السلطانُ هذا المهرجانَ البحــرىَّ الرائـعَ بعـدَ أن تـركَ أحـدَ أبنائِهِ وأحدَ نُبَلائهِ فى ضيافةِ الأســطولِ البرتغـالى، وأخـذَ السـلطانُ معه إلى البر اثنينِ منَ البرتغاليينَ رغبةً منه فى أنْ يمكنهمَا منْ زيارةِ قَصْره.

ووعدَ السلطانُ - إكرامًا لهؤلاءِ الوافِديــن - أن يقيـمَ علـى طـولِ الشاطئِ مهرجانًا للفرسَانِ الذينَ سيقومونَ أمامَ «فاســكو» ورجَالـهِ بعرضِ ألعابِ الفروسيّة وهو راكبٌ فِى البحرِ، ما دَامَ لا يريدُ النزولَ.

وظـهرَ السـلطانُ فِـى اليـومِ التـالِى عَلــى أرضِ الشــاطئ وفــى مُوَاجهةِ الســفنِ البرتغاليـةِ، وقـد لبـسَ عبـاءةً ملكيـةً مـنَ الحريـرِ الدمشقى الموشى بأهدابٍ منَ الحريـرِ الأخضـرِ، ووضـعَ عَلـى رأسـه طاقيةً مُطَرزة بـالذهب ومُزَينـة بـالجواهرِ. وجلـسَ السـلطانُ علـى

كُرسى منَ البرونزِ المنجَّدِ وعليه حشيتانِ(١)، وفوقَ رَأْسه مِظَلَّةٌ(٢) مُستديرةٌ منَ الحريرِ القُرمزى يحملهَا قائمٌ منَ الخشبِ. ووقفَ بجانبِ السُّلطانِ شيخٌ يُلازمه مُلازمةَ التابعِ، ويحرسُه حراسةَ الأمينِ، وقد حملَ سيفاً قصيرًا مُغْمَدًا فِى غِمْدٍ(٣) منَ الفضةِ الخالصَةِ.

ولمَ يتم جمالُ هذا المهرجان البسيط إلا بفرقةٍ منَ اللاَّعبينَ والعازفينَ! لقد كانَ هناكَ منْ ينفخونَ فى الأبواقِ، كما كانَ هناكَ اثنانِ ينفخَانِ فى نَفِيريْنِ كَبيريْنِ من العاجِ يبلغُ حجمُ الواحدِ منهما



(١) الحشيَّةُ: كيسٌ مَحْشو بالقطنِ أو الريشِ الصغيرِ عَلى هيئةِ وسادة صَغيرة والجمع حَشَايَا.

(٢) المِظَلَّةُ: مَا يُسْتظَلُّ به والجمع: مَظَالّ.

(٣) الغِمْدُ: غلافُ السيفِ، والجمع: غُمُودٌ، وأَغْمَادٌ.

حَجْمَ الرجلِ، وقد زُينا بنقوشٍ جميلةٍ محفورةٍ عَلى سطحهَا. واجتمعَ منْ هذه الأصواتِ كُلِّهَا نغمٌ مُتساوقٌ[١] لذيذٌ!

وكأن هذا المهرجانَ الجميلَ للفروسيةِ لم يكُنْ كافيًا لإكرامِ البرتغَاليينَ، فَفِي اليومِ التالِي ركبَ «فاسكو دى جاما» ومعه «نيقولا كويليو» - ربانَ السفينةِ «بريو» - قاربًا وأخذا يجدفَانِ فيه أمامَ المدينةِ عَلى طولِ الساحلِ ذَهَابًا وَجَيْئَةً[٢]، ولم يفتهمَا أنْ يأخذا معهمَا بضعةً منَ القواربِ الطويلةِ المزودةِ بالسلاحِ.

ولم يكُنْ سلطانُ ملندة جالسًا هَذِه المرةَ على كُرسيه البرونزى، وإنما كانَ محمولاً فى محفةٍ[٣] منْ دَرَج قَصْرِه إلى مقربةٍ منَ القاربِ الذِى كانَ يجدفُ فيه الملاحُ البرتغالى الجرِىء، ولما اقتربَ الرجلانِ - بينَ أصواتِ التهليلِ، ومعارضِ الفرسانِ، ولعبِ الخيولِ - رغبَ السلطانُ مرةً أُخرى أنْ ينزلَ «فاسكو دى جاما» إلى البر، لأنَّ والدَه المسن المقعد يودُّ لو يحظَى برُؤْيته، وقدمَ السلطانُ نفسَه وأبناءَهُ رهائنَ عَلى ظهرِ السفُن البرتغاليةِ حتى يتم «فاسكو» زيَارته إلى البر، ولكنَّ الملاحَ الداهيةَ لم يعدمْ[٤] - على الرغمِ منْ ذلكَ - وسيلةً إلى الاعتِذار!

---

(١) مُتسَاوقٌ: مُتتَابعٌ.

(٢) جَيْئَةً: أتى

(٣) يُقَالُ حَفَّ فُلانًا: اعتنَى بِهِ ومَدَحَه.

(٤) لم يعدم: لم يفقد — سيجد.

والحقُّ أنَّ سلطانَ ملندة كانَ على جانبٍ منَ الخطأِ والغفلةِ حينَ رحَّبَ بالبرتغاليين وفتحَ لهم ذراعيْهِ، فإنه لم يكنْ يَدْرى أنه بعدَ بضعةِ عَشَر عامًا من هذا الترحيب سيشلُّ البرتغاليونَ حركةَ التجارةِ فِى ملندة إلى حدٍّ لم يكنْ يخطرُ لهم علَى بالٍ. ولكنْ ماذَا تكونُ هذه السيئةُ أو حتى السيئاتِ التى اقترفهَا «فاسكو دى جاما»، بجانبِ الحسنةِ الكُبرى التِى أسداهَا إلى العالِم كُلِّهِ وإلى البرتغالِ خَاصَّة، بكشْفِ الطريقِ إلى بلادِ الهندِ؟

رهينة من العرب فى ملندة

لم يكن العربُ كاذبينَ حينَ أَخبروا «فاسكو دى جاما» بأنَّ فى مدينةِ «ملندة» أَرْبعَةً منَ السفنِ الكبار يملكهَا جماعةٌ مِنَ الهنودِ. لقد جاءَ هؤلاءِ الهنودُ ليحيُّوا السفنَ البرتغاليةَ، وصعدُوا على ظهرِ السفينةِ «سان رافايل» التِى كانَ يُديرُ دفتهَا «باولو دى جاما» شقيقُ «فاسكو». واستقبلَهم القائدُ «فاسكو» نفسُه علَى ظهرِ السفينةِ التى يقودهَا أَخُوه. وقد تَوَالت زياراتُ هَؤُلاءِ الهنودِ للسفنِ البرتغاليةِ، ولم تخلُ زيَارة لهم منْ هديَّةٍ منَ القرنفلِ، وحبِّ الفلفل وغيرهما مما استطاعُوا أن يقدمُوه.

وبدَا الهنودُ للبرتغاليينَ لأولِ مرةٍ، فى ألوانِ بشْرتهم السَّمراء النحَاسية، وفِى مَلاَبسهم القليلةِ التِى يتخففونَ منهَا، وفى لِحَاهم التِى يرسلُونها، وفِى شعُورهم الطويلةِ التِى يضفرونهَا.

ولم يتناول الهنودُ منَ الطعـامِ الـذِى قـدمَ إليـهم شـيئًا مـنَ اللحـمِ خشيةَ أن يكونَ منْ لحمِ البقرِ، الذِى عرفَ البرتغاليونَ منهم أنه محرم عَلَيهم بحكمِ شَرِيعتهم.

وأدركَ البرتغاليونَ أنَّ الهنودَ يتكلمونَ لغةً أُخرى غير لغـةِ العـربِ، تختلفُ عنهَا نطقًا وقواعـدَ وأُصُـولاً، وإن كـانَ بعضُـهم اضطـرَّ بحكـمِ اختلاَطِه بالعربِ إلى التكلمِ بالعربيةِ، فقد كانَ بينَ العربِ والهنودِ فِى ذلـكَ الزمانِ علاقاتٌ تجاريةٌ وثيقةٌ، زَادتها صناعةُ البحرِ توكيدًا عَلى توكيدٍ..

وما بدَا[1] اطمئنانٌ عَلى أهلِ ملندة وسلطانها كَما بدَا عَلى وُجُـوه هؤلاءِ الهنودِ، والحقُّ أنهم لَمْ يكونُوا مـنَ النصـارى كمـا فـهمَ العـربُ، ولكنهم كَانُوا منَ الهندوكيين. ولقـد كـانَ لقـاؤهمِ للبرتغـاليينَ جميـلاً، وفَرحهم بهم كبيرًا، ولما كانَ «فاسكُو دى جاما» فى قَاربهِ يسـتعرضُ فرسانَ ملندة يومَ المهرجانِ، كـانَ هـؤلاءِ الهنـودُ يطلقـونَ الصواريـخَ مـنْ سُـفُنهم تحيـةً لـه ولرجَالـه، وكـانُوا يسْـتقبلُونه - كُلَّمَـا رَأَوه - بالصياحِ، والهتافِ، والتهْلِيلِ!

وحَذَّر هؤلاء التجارُ الهنودُ القائدَ «فاسكو دى جاما» منْ أَهلِ ملندة، ونصحُوه أنْ لاَ يَغترَّ باحتفَالاَتـهم، ولا ينخـدعَ بمهرَجَاناتـهم، لأنَّ هَـذِه الحفاوةَ ليستْ صادرةً منْ أعماقِ قُلُوبهم، ولا نتيجـةً لحسـنِ نِيَّاتـهم. ولم تكنْ هذه التحذيراتُ إلا نتيجةَ التنافسِ الشديدِ بـينَ تجار العـربِ

---

(١) مَا بَدَا: مَا ظَهَرَ.

والتجار الهنودِ، فقد كانَ هؤلاء الهنـودُ يخشـونَ مـنَ العـربِ مُنَافسـتهم إيَّاهم فِي التجارةِ بينَ السواحلِ الهندية، وسواحلِ الجزيـرةِ العربيـةِ، وسواحلِ إفريقية الشرقية.

ولبثَ البرتغاليونَ أيامًا ينتظرونَ الأَدِلَّاء الذيـنَ وعـدَ بـهم سـلطانُ ملندة، وَأَخَذَ «فاسكُو» أحدُ رجالِ السلطانِ المقربينَ رهينةً حتى يتمَّ إنجازُ وَعْـده، وبعـثَ إليـه رسـالةً يُذكـره فيـها بعـهْدِه، فأرسـلَ إليـه السلطانُ دليلاً مِنْ غـيرِ المسـلمينَ، وبـذا أطلـقَ «فاسـكو دى جامـا» سراحَ التابعِ الأخيذِ. وأدلَ الدليلُ الجديدُ إلى البرتغاليينَ بطائفـةٍ مـنَ المعلوماتِ عَنِ الشاطئِ الإفريقى الشرقى وسواحِلِه وجُـزره وتجَارتـه. وحَدَّثهم عَنْ جزيرةِ «كلوا» «Kilwa» القريبة منْ مُوزمبيق، ومَا فيهَا منَ الَّلآلئ الَّتِى تُصَاد منْ بحرهَـا. ولم يكـن اسـم «كلـوا» غريبًـا علـى مَسَامع البرتغاليين هذه المرة، فقد سمعُوه قبلَ ذلكَ مـنْ أفـواهِ الأدلاءِ العَرب.

وأُعجبَ البرتغاليونَ بمدينةِ ملندة الراقـدَة علـى خليـج مُسـتطيلٍ عَلـى امتـدَادِ الشَّـاطئ، ووجـدُوا بينـهَا وبـينَ مدينـة «الكوشـتْ» «Alcochete» البرتغالية وجوهًا مِنَ الشَّبه، حيثُ ترقـدُ هـذه الأَخِـيرة عَلى مصَبِّ نهر «التاجة» شمالى مدينة لشْبُونة بقليلٍ. وَلَفتـت المدينـةُ الإفريقيـةُ التجَاريّـةُ أنظَـارَهم ببيوتـهَا المرتفعَـةِ العاليـةِ الطبقَـاتِ، وبألوانهَا البيضَاء المطْلية بالكِلْس[1] أو المرشُوشـة بالجـيرِ، وبنوافذهَـا

(١) الكلْسُ: الجيرُ. وهو المادّةُ المتبقيةُ بعد تسخين الحجر الجيرى تسخينا شديدا وبعد خروج بعض مُكوّناته.

الكثيرةِ التــى كـانَ يبـدُو النـورُ منـهَا فِـى ظـلامِ الليـلِ فتلـوحُ كأنـهَا فَوَانيس مُعَلقة فى الهواءِ..

وكانَ يحيـطُ بملنـدة مـنْ جهـةِ الأرضِ أحْـراجُ[1] النخيـلِ، وحقـولُ الذرةِ، وحدَائقُ الخضرِ التى كانت تنمُو بكثرةٍ فى تلكَ البلادِ.

وأقامَ البرتغاليونَ فى مياهِ ملندة تسعةَ أيامٍ منْ منتصفِ إبريل سنة ١٤٩٨ لم ينقطعْ فِى خلالها موكبٌ عَلى الشَّاطئ، ولا مهرجَانٌ ولاَ فُروسـيةٌ، ولا عزفٌ بالموسيقَى، ولا غيرهَا منْ مظاهرِ الحفاوَةِ والتكْريم.

إلى الشمال من خط الاستواء ثانية

فى اليومِ الرابعِ والعشرينَ منْ شهرِ إبريل سنة ١٤٩٨ كانَ الملاحـونَ البرتغاليونَ يرفعونَ المراسِى، وينشـرونَ القلـوعَ، ويمسـكونَ بالحبـالِ، ويروحُونَ ويغْدُونَ فى حركةٍ سريعةٍ عَلى ظهور السـفنِ الثـلاَث. ولم يكنْ ذلكَ المشـهدُ إلاَّ إيذانًـا بـالرحيلِ مـنْ ملنـدة إلى حيـثُ يوجِّهُـهُم الدليلُ !

وكانت وجهةُ الدليلِ أنْ يَمْضِىَ بهم إلى ثغرِ «قـاليقوط» «Calicut» على الساحِل الغربى لبلادِ الهنـدِ، وهـى بـالطبعِ غـير مدينـة كالكوتـا «Calcutta» الواقعةِ فِى الشرق منْ تلكَ البلادِ، على أحدِ الفـروعِ فـى دِلتا نهر «الكنج».

---

(١) الحِرْجُ: الشَّجرْ الكثيفُ الذى لا يستطيع أحدٌ أنْ ينْفُذَ منه والجمع أحْراجٌ.

ولمْ ينقطعْ سؤالُ البرتغاليينَ لهذا الدليلِ بينَ لحظةٍ وأُخرى عنْ مَدَى الطريقِ، ومَا بقى منه بالقياسِ إلى مَا مَضَى، وطبيعةُ الساحلِ الغربى للهندِ، والمدُن القائمةِ عليه، منَ امتدادِه بين الشمالِ والجنوبِ.

وأخبرهُم الدليلُ أنهم سيُصَادفونَ فى طَرِيقهم إلى الهندِ خليجًا كبيرًا هو «بحر العرب»، وأَنَّ ستمائة جزيرة تنتثرُ عَلى جوانبِ هذا الخليجِ الواسعِ الذِى يُؤدى إلى بحرٍ يُسمى «البحر الأحمر»، وأَنَّ هذا البحرَ الأخيرَ هو الطريقُ إلى مكةَ وإلى الكعبةَ، التى يحجُّ إليها المسلمونَ، ويأْتُونَ إليها منْ كلِّ فَجٍّ[١] عميقٍ.

وفى آخر يوم أحد منْ شهر إبريل، أخذ «باولو دى جاما» يقلبُ وجْهه فِى السماءِ، فرأَى فيها نجمًا لامعًا طالَ عَهْدهم به منْ زمنٍ بعيدٍ! ولَمْ يطق «باولو» أنْ يصمتَ عَلى رؤيةِ هذا النجمِ، فأعلنَ، فى فرحةٍ وفى صوتٍ مُرتفعٍ، أنَّ هذا النجمَ هو النجمُ الشمالى الذِى يدلُّ ظُهُوره ثانيةً عَلى أَنَّ الملاحينَ قد اجتازُوا الآن خطَّ الاستواءِ إلى جهةِ الشمالِ منَ الكرةِ الأرضيةِ، بعدَ أنْ ظلُّوا شهورًا فى غمَرَات الجنوبِ !

---

(١) الفَجُّ: الطريقُ الواسعُ البعيدُ والجمع فِجَاجٌ. وأَفِجَّة.

ملامح من أرض الأحلام

ظلَّ «فاسكو دى جاما» ورجَالُه منذُ غَادرُوا ثغرَ ملندة ثلاثةَ وعشرينَ يومًا لم يروا فى خلالَها أرضًا، ولم تقعُ عُيونُهم علَى برٍّ. ولكنهم فى هذِه الجولةِ الأخيرةِ لم يكونُوا يائسينَ ولا خَائفينَ. لقدْ كانُوا على ثقةٍ منْ أَنهم عَلى الطريقِ إلى الهندِ، طَالَ بهم السبيلُ أَمْ قَصر، وكانُوا على ثقةٍ أَنَّ العنايةَ الإلهيةَ التِى لاَحظَتهم شهورًا كثيرةً منذُ غَادَرُوا لشبونة، لنْ تتخَلَّى عَنْهم فى أخرياتِ الطريقِ. وفى اليومِ الثامنِ عَشَر منْ شهرِ مايو سنة ١٤٩٨ كانَ الملاحونَ البرتغاليونَ يتطلعونَ فى شوقٍ وتلهفٍ إلى مَا وراءَ الأفقِ، فإذَا هُم يلمحونَ سلسلةً منَ الجبالِ العَالية، وكانتْ هذِه الجبالُ هى جبَال «دلى» «Dely» التى تكوِّن رعانًا[1] ممتدة داخلَ البحرِ. ولم يكُن بينَ السفنِ البرتغاليةِ وبينَ هذِه الجبالِ والرعَانِ أكثر منْ ثمانيةِ فراسِخ، عَلى حينَ كانَ عمقُ البحرِ - حينما أَدْلى الملاحونَ مقاييس الأعماقِ - خمسًا وأربعينَ قامةً بحريةً، وهو عمقٌ عَظيم.

وبعدَ محاولاتٍ واتجاهَاتٍ، قاربَ الملاحونَ الأرضَ، وسَارُوا بسُفنهم على محاذاةِ الساحلِ، ولكنَّ الأمطارَ الثقيلةَ المنْصبَّةَ، والعواصفَ

---

(١) الرعَان: أُنوفُ الجبالِ: واحدهَا: رَعْنٌ.

الشديدة، والرعودَ الخاطفةَ التى ظلَّت وقتًا طويلاً، لم تُساعد الدليلَ الذِى صَاحبهم منْ ثغرِ ملنـدة عَلـى أن يتبينَ حقيقـةَ الموقـعِ الـذِى كَانُوا فيه.

وفى صباحِ يـومٍ مـنْ أيـامِ الآحـادِ التِـى كـانتْ تَتشَابه دائمًا مـعَ بقيةِ أيامِ الأسبوع، وجدَ البرتغاليونَ أنفسَهم عَلى مقربةٍ منْ بعـضِ الجبالِ التِى تُسمى «رأس كوتا» «Cotta» أو «رأس كادلور» «Kadalur»، وَلَمَّـا تفرسهَا الدليلُ فراسةَ العارفِ الخبيرِ عَلى مقربـةٍ منـهَا، عـرفَ أنها تقعُ إلى الشمالِ منْ مدينةِ «قـاليقوط»، وأنـها لا تبعـدُ عـنْ هـذَا الثغرِ أكثرَ منْ خَمْسة عَشرَ ميلاً.

هنا بلغَ الفرحُ مبْلغه منْ قلوبِ البرتغاليينَ! إنـهم الآن عَلـى مَـدى النظرِ منَ الشاطئ الـذِى قَطَعـوا إليـه الأمـواجَ واللجـج! إنـهم الآن يشهدونَ قممَ الأرضِ التِى انتهَت إليها آمالُهُم!

إنهم الآن يواجهونَ الغرضَ الـذِى قـامُوا مـنْ أجلـهِ منـذُ عشـرة أشهرٍ تقريبًا، ترميهِم اللُّجَجُ وتقذفُ بهم الغَمَرَاتُ(١) فى البحَار، وهـم لا يدْرون أينَ يبلغونَ، وإلى أينَ ينتهونَ؟ ولا يعرفـونَ إذَا كـانَ النجـاحُ مقدرًا لهم، أم الإخفَاقُ مَكْتوبًا عَليهم!

والآن صارَ النجاحُ مِنْهم عَلى أطرافِ الأصَابع، وليسَ بينـهم وبـينَ أرضِ الأَحْلامِ إلاَّ بِضْع خَطَوات، إذَا قِيسَت بما قَطَعوه منْ آلافِ الأميالِ..

(١) الغَمْرَةُ: الماءُ الكثيرُ والجمع غُمَرٌ، وَغِمَارٌ، وغَمَرَاتٌ.

وفى ليل ١٨ مايو أَلْقَى البرتغاليونَ مَرَاسيهم عَلى بعــدِ فرسخيْنِ اثنيْنِ مــنْ مدينــة «قـاليقوط». وقـد اضْطـروا إلى ذلـكَ لأنَّ الدليـلَ اشتبهَ عليه الأمرُ بينَ ثغرِ «كابوا» «Capua»، وثغرِ «قاليقوط».

ولاَحَت لهـم عَلـى الشـاطئ أيضًا قـربَ «قـاليقوط» مدينـةٌ بحريـةٌ أُخرى، تطلُّ منها عَلــى الساحِل مئذنـةٌ عاليـةٌ، يراهَـا المقبـلُ علـى سَاحلِ الهندِ وهى تضربُ فى الهواءِ، فعرفُوا مــنْ دَليلـهم أنـها مدينـة «فندرينة» «Pandarani» ذات الأَسْوَاق والبسَاتين.

ولو أَنَّ الدليلَ الهنـدِى كـانَ عَلـى شـىءٍ مـنَ العلـمِ بتـاريخِ العـربِ والمسلمينَ والجوَّابينَ[1] فـى هـذِه البحَـار، لأخْـبرهم أ نَّ الرحالـةَ ابـنَ بطوطة قَدْ نزلَ هذِه الثغور كلهَا قبلَ قرابة قرنٍ ونصْــف قـرنٍ مـنَ الزمانِ، حينما قامَ برحلتهِ الأُولى سنة ١٣٢٥م.

ولو أنَّ الدليلَ الهندِيَّ كانَ عَلى شـىءٍ مـنَ العِلـمِ بأخبـار الرحَّـالينَ المسلمينَ، لأخْبرهم أَنَّ ابنَ بَطُّوطة نزلَ بمدينةِ «قاليقوط» وقالَ عنهَا فـى رحْلتـه: «إنـها إحـدَى البنـادر العظـامِ ببـلادِ المليبـار «Malabar»، يقصدهَـا أهـلُ الصـينِ، والجـاوة، وسـيلاَن، والمـهل، وأهـــل اليمـــن، وفارس، ويجتمعُ بهَا تجارُ الآفاقِ. ومرسَاهَا منْ أعظِم مَرَاسى الدنيَا».

ولكنْ هَذه المرة لمْ يقصدْ مدينةَ «قاليقوط» هؤلاء الأُمم والأجناس الذينَ ذَكَرهم الرحالةُ العربىُ المسـلمُ ابـنُ بطوطـة، ولكــنْ قصدَهَـا

---

(١) الجوَّابينَ: المتجوِّلينَ – الرُّحَّالَة.

قومٌ مِنْ أهلِ أُوربة جَاءوا إليها بتكليفٍ منْ مَلِيكِـهم، ليصلُـوا إليـهَا عنْ طريقٍ آخرَ غَير الطريقِ القديمِ المطْرُوق، ولينتزعُوا تِجَارتها منْ أيدِى العربِ ومنْ أيدِى المماليكِ المصريينَ، ومنْ أيدِى أَهْلِ جَنوة والبندقيةَ عَلى حَدٍّ سَوَاء!.

ولم يكنْ سَاحلُ الهندِ الغربى بغيرِ عُيونٍ ولاَ أَرْصَاد، ولا مُلاَحظينَ ولاَ مُرَاقبينَ. فلمْ تكد السفنُ البرتغاليةُ تُلقى مراسيهَا حتَّى وصلَ إليهَا أربعةُ قواربَ قَادِمَة منَ البر، وكانَ بهَا جماعةٌ منَ الهنودِ سَأَلوا هؤلاءِ الملاحينَ عنِ البلادِ التى جَاءوا منهَا، أو الدولةِ التى يُمثلونهَا، أو الغايةِ التِى يَقْصِدُونها.

وبالطبعِ لم يقل البرتغاليون إنهم جَاءوا هنَا ليرسُوا قواعدَ الاستعمار الأُوربى عَلى أساسٍ متينٍ!

وبالطبعِ لم يقولُوا إنهم جاءُوا إلى هنَا ليمهدُوا الطريق لتكوينِ دولةٍ برتغاليةٍ عظيمةٍ، تقوضُ سلطانَ العربِ التجارى والسياسى فِى هذِه البلادِ.

وبالطبعِ لم يقولُوا إنهم جَاءوا إلى هنا لينتزعُوا تجارةَ الشرقِ، ولآلئَ الشرقِ اللاَّمعة، وجواهرَ الشرقِ النفيسةِ، وتوابلَ الشرقِ الشهيةِ اللذيذةِ، منْ يدِ العربِ، ويحتكروهَا لأَنْفُسِهم..

ولم يزدْ «فاسكو دى جاما» عَلى أَنْ أجابَ هؤلاء الهنود بأنهم جَاءُوا منْ بلادِ البرتغالِ المسيحية، ليبلغُوا «قاليقوط» عنْ طريقٍ حولَ إفريقية بدلاً مِنَ الطريقِ القديمِ.

وفى اليومِ التالِي جاءَ الهنودُ فِى قَوَاربهم الأَربعة، ولعلَّهم لم يكُونـوا على جانبٍ مِنَ الثقةِ والاطمئنانِ إلى هؤلاءِ الوَافدينَ.

وخرجَ أحدُ رجالِ «فاسكو دى جاما» إلى البر، فقابَلَه اثنانِ مِنْ تجَّار العربِ التونسيينَ مِمَّنْ لهم خِبْرة بالأسفار، وَمَعْرفة بلغةِ جنوة ولغـةِ قشتالة، فكانت تحيتهمَا إلى الدليلِ البرتغَالى النازلِ إلى أرضِ الهنـدِ هَـذِه العبَارة :

- عليكَ لعنةَ اللهِ وغَضَبَ الشيطَانِ! ماذَا جـاءَ بـكَ إلى هَـذِه البـلادِ أَيها الرجيمُ؟!

وأجابَ البرتغالى أنه جَاء يبحثُ عــنِ المسـيحيينَ مـنْ جهـةٍ، وعـنِ التوابلِ الأَفَاويهِ[1] من ناحية أخرى!.

فسألاه:

- ولماذَا لم يبعثْكَ إلى هُنَا ملكُ قشــتالة، أو ملـكُ فرانسـة، أو أمـيرُ البندقيةِ العظيمِ؟

فأجابهمَا أنه بُرتغالى، وأنَّ ملكَ البرتغالِ لم يـأذنْ لـه ولا لأصْحَابـه بسفارةٍ فِى هَذِه البلادِ، وإنمَا هى رحلةٌ للبحثِ عنْ أطيبِ الأَفَاويه!.

وبعدَ حديثٍ قصيرٍ بينَ البرتغالى والتونسيينَ أخذَاه إلى منزلهمَا، وقدمَـا له طعامًا بسيطًا منْ خبزِ القمحِ وعسلِ النحلِ، فلمَّا فـرغَ مـنَ الطعامِ

(١) الأَفَاويه: التابلُ يُعالجُ به الطَّعامُ والجمع أفاوية ومفردها: الفُوه.

استأذنهمَا فى العودةِ إلى السفنِ، فعادَ ومعه واحدٌ منَ العربِ ما كادَ يصعدُ إلى ظهرِ السفينةِ «سان رافايل» حتى صاحَ بهذهِ العباراتِ:

- مخاطرةٌ سعيدةٌ، ومغامرةٌ موفقةٌ أيهَا الملاّحونَ! ما أكثرَ اليواقيتَ هُنَا! وَمَا أعظمَ الزمرُّدَ! وما أَسْنَى[1] الجواهرَ التِى تمتلىءُ بهَا هَذِه الأرضُ الطيبةُ! إنَّ الله قد ولاّكُم منَ النعمِ ما لا ينهضُ به شُكركُم، حينَ رَمَى بكم إلى هَذِه البلادِ، التِى تحملُ مثلَ هذا الثراءِ!

ونطَقَ العربىُّ هذِه العباراتِ فى لغةٍ برتغاليةٍ ولهجةٍ قشتاليةٍ! فكانَ دَهْشُ البرتغاليينَ لما سمعُوه منْ أنباء أرضِ الأحلامِ، أقل منْ دَهْشتهم لما سمعُوه منْ لُغتهم يتحدثُ بها عَربى فيما وراءَ البحارِ!.

وأغلبُ الظَّن أنَّ هذا المتحدثَ لم يكنْ عربيًّا أصيلاً، وإنما كانَ منْ هذِه الشعوبِ التِى دخَلَتْ فِى الإسلامِ، كالتركِ والألبانيينَ واليونانيينَ وغيرِهم منْ عناصرِ أوربا الجنوبيةِ، الذينَ نزحُوا إلى هذِه الأرجاءِ البعيدةِ طلبًا للأرباحِ التِى كانتْ تُدرها التجَارةُ فِى هذا المجالِ.

ورأى «فاسكو» ورجَالُه فى مدينة «قاليقوط» مَا لمْ يروْهُ فى غيرهَا منَ الثغورِ التى مَرُّوا بها خلالَ رحْلتهم علَى شواطئ القارةِ المظلمةِ غربًا وشرقًا.

رأى الهنودَ فِى أجسامِهِم النحاسيةِ اللَّون، وفى لِحَاهِم الكَبيرةِ، وضفَائِرِهم المرسلةِ، ورأى بَعضهم يحلقونَ رءوسَهم، أو يقصرونَ

---

(١) سَنِيَ: سَنًا، وسَنَاءً: ارْتَفَعَ ثمنُهُ.

شعُورَهم، ورأى بَعْضهم يتركونَ فى وسطِ رُءُوسهم خصلةً طويلةً منَ الشعرِ تميزهم عن غَيرهم من المذاهبِ، ورآهم يتركونَ شَوَاربهم مُرْخَاةً على جَانبى أشدَاقهم.

ورأى الرجالَ منهم يثقبونَ آذَانَهم ويتحلُّونَ فيها بأقراطٍ وأثقالٍ منَ الذهبِ.

ورأى أجْسَامهم عاريةً إلى خُصُورهم، ولكنهم يغطُّونَ أنْصَافهم السفلَى بقُمَاشٍ منسوجٍ منَ القطنِ الرفيعِ.



ورأى البرتغاليونَ فى «قاليقوط» طوائفَ منْ أصحابِ المذاهبِ لم يروْهَا فى مكانٍ آخرَ:

رأوا أَهْلَ ساحلِ المليبار المحاربينَ الذينَ يبيحونَ أكلَ اللحم، وتعددِ الأزواجِ إلى غيرِ عددٍ محدودٍ، ورأوا البرهميينَ، ورأوا العربَ أو المسلمينَ وهم ينحدرونَ منْ أُصولٍ عَربية الآباء هِنْدية الأمهاتِ.

ورأى البرتغاليونَ نساءَ هذه البلادِ فى قاماتهنَّ القَصِيرة القميئة، وفى قلائدِ الذهبِ التى يُطوقنَ بهَا أعناقهنَّ، ويملأنَ بها لَبَّاتهن[1]، حتَّى ليكادُ الذهبُ الكثيرُ يثقلُ هذِه الرقابِ الخفافِ! وكُن يَتزيَّنَّ بكثيرٍ منَ الأَسَاور والدمَالجِ التى تصلُ متلاحمةً منْ أرسَاغهنَّ إلى مَرَافقهنَّ. ولم يتركْنَ أصبعًا من أصَابع اليدِ أو الرجلِ إلا حلَّينه بخواتمَ ذواتِ فصوصٍ من الحجَرِ الكَريم!

ولاحظَ الملاحونَ عَلى أهلِ هَذِه البلادِ هدوءَ المزاجِ، وسلامةَ الطبعِ، فلا يغضبونَ، ولا يثورُونَ..

شيخ البحار الهندى

لم يكنْ حاكمُ «قاليقوط» أو ملكُهَا فى ذلكَ الوقتِ منَ العربِ أو المسلمينَ، وإنما كانَ مِنْ طائفةِ الهندوكيين.

وإذَا كانَ ملكُ مصرَ يُلقبُ فى القديمِ «بفرعونَ»، وملكُ الفرْس يلقبُ «بكِسْرى»، وملكُ الرومِ يلقبُ «بقَيْصر»، فإن ملكَ «قاليقوط»

---

(١) اللَّبَّاتُ بفتحِ اللامِ: جمعُ لَبَّةٍ، وهى موضعُ القِلادَةِ منَ الصدر.

كان يلقبُ مِنْ قديمٍ «بالسَّامِرِى» كما نَطَقَ بهَا العربُ، «وبـالزّامرين» كما كانَ يَلْفَظُهَا البرتغاليون.

وكان «الزامرين» بعيدًا عنْ «قاليقوط» حينما رسَا فيهَا البرتغاليونَ.

وبعثَ إليه «فاسكو دى جاما» رَسُولين مـنْ رجَالـه يحمـلآنِ رسـالةً إليه يُخبره فيها بأنَّ سفيرَ ملكَ البرتغالِ قـد وصـلَ إلَـى هـذَا الثغـر، وأنه يودُّ لو أذِنَ لهما ملكُ «قاليقوط» بالمثُولِ بينَ يديــهِ ليحمـلاَ إليـه رسالَةَ السفيرِ. وأوصلَ الرسولانِ إلى شيخِ البحار الهنـدِى، حيـثُ كـانَ بعيدًا عنِ الثغـرِ الهنـدِى العظيـمِ، فـأهدَى إليـهمَا مـنْ رقيـقِ الثيـابِ مَا طَابت به نَفْسَاهُمَا. وبعثَ معهما كلمـةً رقيقـةً يُبَلغانـها إلى القـائدِ البرتغالى الكبيرِ، تحملُ مـنْ علامَـاتِ الـترحيبِ، وآيـاتِ التمنـى بطيـبِ المقامِ وسلامةِ الوصولِ، مَا عدَّه الوافدونَ مُجَاملـةً كريـمةً مـنْ ملـكٍ شَرقى كريمٍ!

وبعدَ ساعاتٍ جاءَ رسـولٌ مـنْ قبـلِ «الزامريـن» يبلـغُ البرتغـاليينَ بـتركِ المكـانِ، وإلقـاءِ المراسِـى قـربَ ميـنـاءِ «فندرينـة» ذاتِ الأسـواقِ والبساتينَ. ولم يعرفْ «فاسكو دى جاما» سببًا لهذِه الأوامـرِ، أو تعليـلاً ظاهرًا لها؛ إلا ما سمعَ منَ الرسـولِ بـأنَّ المكـانَ الثـانِى أكـثرُ صلاحيـةً لرسُوِّ السفنِ منَ المكانِ الذِى هُمْ به الآن، حيثُ تكـثرُ الصخـورُ فِـى القـاعِ، وهـى صخـورٌ لا يؤمـنُ معــهَا حـادثٌ قـد يُـودِى بالسـفنِ وبالملاحينَ! وزادَ الرسولُ الهندى عَلى ذلكَ بأن العادةَ جرتْ مـنْ قديـمٍ

بأنَّ السفنَ القادمةَ ترْسُو علَى هذَا المكانِ الذِى صَدرت الأوامرُ بالذهابِ إليه، طلبًا للسَّلامةِ، وإيثارًا للأمانِ!

ولم يكدْ «فاسكو دى جاما» يَتَلَقَّى هذِه الرسالةَ من «الزامرين» حتى أمرَ رجَالَهُ بأنْ يَرْفعُوا المراسِى وينْشُروا القلوعَ التماسًا لمرسَى أَمِين !

وجَالت السفنُ جولاتٍ فى مياه «قاليقوط» حتى بلغَت مَرْسى تطمئنُّ إليه نفسُ القائدِ البرتغالى، وبينما هُم يُلقونَ المراسِى فى الموضِعِ الجديدِ إذَا برسالةٍ مَلَكيةٍ منَ «الزامرين» تُنْبِئُهم بعَوْدته إلى مدينةِ قاليقوطٍ، بعدَ غيابهِ - حينًا - خَارجَهَا.

وفى الوقتِ نفسِه أرسل «الزامرين» نائبًا منْ قبلهِ معَ بعضِ الرجالِ الممتازينَ، ليصْحَبوا «فاسكو دى جاما» إلى حيثُ كانَ ملكُ «قاليقوط» يَنْتَظِره. وكانَ هذا الوالِى لا يخرجُ إلاَّ محروسًا بمائتينِ منَ الرجالِ الأشداءِ المدجَّجينَ[1] بالسيوفِ، والمزوَّدينَ بالدروعِ والتروسِ. وجاءت رسالةُ «الزامرين» فى ساعةٍ مُتأخرةٍ منَ الليلِ لم يستطعْ معها «فاسكو دى جاما» أنْ يُلَبى دعوةَ «شيخ البحار».

على موائد الهنود

وطَلَعَ يوم ٢٨ مايو سنة ١٤٩٨ بصباحٍ جَديدٍ، واستعدَّ «فاسكو دى جاما» ليقابلَ «الزامرين» وليحَدثه وليستمعَ إلى حَديثِهِ لو كانَ عِنده من

---

(١) المُدجَّج: مَنْ عَليه سِلاَحٌ تَامٌّ.

حَديث! واصطحبَ «فاسكُو» معه ثلاثةَ عَشرَ رجلاً مِنْ رجَالِه كانَ فيهم مُدوِّنُ هَذِه الرحلةِ الطريفَةِ الشائقةِ، الذِى لولاهُ لضاعَ كثيرٌ مِنْ أخبارِهَا وتفاصيلِهَا.

وكانَ مِنَ الثلاثةِ عَشَرَ رجلاً الذينَ شهدُوا هذا اللقاءَ التَّاريخىَّ الخطيرَ: «دِيجو ديان»، و «جونسالو»، و «بيريس»، و «الفارو دى براجا»، و «جون دى سيتوبال»، و «جون دى بولا» وغيرهم لم يُدَون الكاتبُ أسْماءَهُم. أما «باولو دى جاما» - شقيق «فاسكو»، «ونيقولا كويليو» فقد بقيَا معَ بقيةِ البحارةِ والملاحينَ فى حراسةِ السفنِ الراسيَة.

ولقد أصرَّ «باولو»، و «كويليو» أن يشهدَا هذا اللقاءَ معَ الشاهدينَ، ولكنَّ «فاسكو» التفتَ إلى شقيقهِ قائِلاً:

- ابقِ يا «باولو» مع بقيةِ الرجالِ ومعكَ «نيقولا كويليو» فى انتظار عودتنَا! فإذَا مسنَا سوءٌ فعليكمَا بالعودةِ عَلى عجلٍ إلى مَليكنا «عمانويل»، لتبلغَاه نبأ النجاحِ العظيمِ الذِى حصلنَا عَليه.

فأجابَ باولو:

- ولكنكَ يا أخِى تُخاطرُ بنفسكَ حينَ تُلقى بها بينَ يَدَىْ رجلٍ لاَ تعرفه ولا تطمئنُّ إليه، ومَا قيمةُ عودتنا إلى الوطنِ بدونِكَ إذَا مَا أصابكَ مكروهٌ؟

فأجابَ الملاحُ البرتغالى العظيمُ:

- يا أخِى! ليسَ النجاحُ كَسْبًا لفردٍ، ولكنه ربحٌ لأمةٍ. فنجاحُ مُهمتنَا - حتى عَلى افتراضِ هَلاَكى - هو نجاحٌ للشعبِ البرتغالى كُلِّه.

وارتـدَى البرتغـاليونَ لهـذِه المناسـبةِ أجمـلَ ثِيابـهم، وأبْـهَى حُللـهم، ونصبُوا المدافعَ علَى قوَاربهم، وحملُوا معَهم الأبواقَ والطبولَ والأعْلام، فلمَّا نزلُوا إلى البرِّ كـانَ فِـى اسْتقبالهم منـدوبُ «الزامريـن» مُحَاطًا بشرذمةٍ منَ الرجالِ المسلحينَ وغيرِ المسلَّحينَ.

وكانَ اللقاءُ وُدِّيًا - كَمـا يَصِفـه مُـدونُ الرحلـةِ ومُؤَرخـها - كـأنَّ الهنودَ كانُوا يُعبرون عنْ سُـرورهم برؤيـةِ البرتغـاليين، ولـوْ أنـهم فـى سُيُوفهم المسْلُولةِ ورمَاحِهم المشرعةِ التى كانتْ بأيْدِيهم كأنـهم كَـانُوا يُنْذرونَ هؤلاءِ الوافدِينَ.

وأرادَ أهلُ البلادِ أنْ يُضْفُوا علَى «فاسكو دى جامـا» ورجَالِـهِ مـنْ آياتِ التكريمِ وعلاَماتِ الترحيبِ مَا يليقُ بالضيوفِ البَـارزينَ، وأعـدُّوا لذلـكَ مـنَ الخطـطِ مَـا يعُدونـه عـادةً فـى اسـتقبالِ العظمَاءِ، وتَحيـةِ الكُبَرَاء[1].

وقد جَرى العـرفُ فِـى تلـكَ البـلادِ أَنْ يقـدمَ التجـارُ إلى الملـكِ ثمنًـا لما يُقَام لهم من مظاهرِ الاستقبالِ، حتـى لا يمـرُّوا بـأرضِ «قـاليقوط» فى صمتٍ ولا يدخلوهَا فِى سُكونٍ!.

وحُمِلَ فاسكو دى جاما فِى ثِيَابه الزاهيةِ، وقُبعته العَاليـةِ، وَعبَاءتـه الملَونـة المزركَشـةِ، فِـى مَحَفَّـةٍ[2] أنيقـةٍ كـانَ يتنـاوبُ حملـهَا سـتةٌ مِـنَ الرجالِ.

---

(١) كبر الرجُلُ أو الحيوانُ كبَرًا: طعَن فى السنِّ فهو كبيرٌ والجمعُ: كبارٌ، وكُبراء.
(٢) يُقالُ حَفَّ فُلانًا: اعْتنَى بهِ ومَدحه.

وأخذ الموكبُ الفخمُ طَريقه إلى «قاليقوط»، ومنهَا إلى مدينةٍ أُخرى لا تبعدُ كثيرًا عنهَا تُسمى «كابوا».

وبلغَ الموكبُ نِهَايته عندَ بيتِ رجلٍ منْ وُجَهَاء[1] المدينةِ ونُبَلائها منَ المقربينَ إلى «الزامرين»، ومنْ أشدهم إخْلاصًا له واتصَالاً به.

وكانَ لابدَّ للضيافةِ أنْ تتمَّ مَرَاسيمهَا عَلى مَا جَرى به العرفُ فى إكرامِ الضيوفِ النازلينَ.

وحفلَتِ المائدةُ بصِحَافٍ منَ الأرز الشَّهى، والزبدِ الطَّازج، والسمكِ المسلوقِ الذى كانَ من نوعٍ ممتاز لم يألفه هؤلاءِ الملاحونَ الذينَ كانُوا خُبراء - منْ طُولِ أسْفَارهم - بما يخرجُه البحرُ منْ لحمٍ طَرِى..

ولكنَّ «فاسكو دى جاما» كانَ دائمًا عَلى جانبِ الحذر فِى بلادٍ لا يعرفُ مَكْنون صدُور أهلهَا نَحْوه، فلم يتناولْ منَ الطعامِ شيئًا، عَلى حين أكلَ رجالُه واستطَابُوا ذلكَ الطعامَ البسيطَ اللذيذ!.

ولما فرغُوا منَ الطعامِ رَأَوْا عَلى مقربةٍ منَ الثغرِ نُهَيْرًا[2] صغيرًا يجرِى بينَ البحرِ والأرضِ قريبًا منَ السَّاحل، فنزلُوا فيه بالقواربِ ليستطلعُوا الأرضَ حَواليه، وسارُوا فى مجراهُ إلى أمدٍ غيرِ قَصيرٍ. ولم يكنْ هذا النهرُ غيرُ نهرِ «إلاتور» «Elatur».

---

(١) وَجُهَ فلانٌ: يَوْجُه وجَاهةً: صار ذا قَدْر ورتبةٍ. فهو وَجِيه. والجمع وُجَهاء.

(٢) نهيرا: نَهْرٌ صَغيرٌ.

إلى قصر الزَّامرين

كان القاربـان اللَّـذانِ ركبـهمَا البرتغـاليونَ الثلاَثـة عَشَـرَ فـى نـهرِ «إلاتور» قَدْ شُدَّ بعضُهمَا إلى بعضٍ بألواحٍ منَ الخشبِ، فصارَ الركـابُ كأنهم فى مركبٍ واحدٍ لا ينفصِلُ أحدُهمَا عنْ صَاحِبِه.

ولما زارَ الرحالةُ الإنجليزى المشـهورُ «برتـون» «Burton» هـذه البـلاد فى القرن التاسع عشر، ونزلَ هذا النهرَ بعينـهِ، وجـدَ القـواربَ فيـه تُشد مَرْبوطًا بعضهَا إلى بعضٍ، كل اثنينِ فى رباطٍ، كما كَـان الشـأنُ فى وقتِ نزولِ البرتغاليينَ..

ورأى «فاسكو دى جاما» ورجَالُه النهرَ وقد راحَـت فيـه القـواربُ، وغدَت فيه المراكبُ، وازدحم بالراكبينَ الذينَ مَلَئُوا سطحَه، حتـى لم يبدُ الماءُ منْ خلالِ القواربِ المتلاَصِقة.

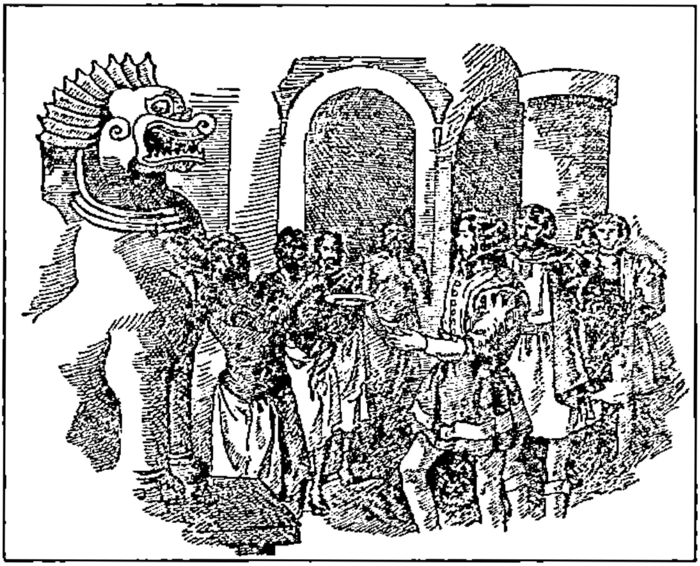
أمَّـا شـاطئَا النـهرِ فقـد ازدحَـا بالرجـالِ والنسـاءِ والأطفـالِ الذيـنَ احتشدُوا عليهمَا، ليشهدُوا هؤلاءِ الغرباء الذينَ حَمَلتـهم إلى ميـاه الهنـدِ سفنٌ ضخَامٌ مُسلحةٌ، لم يألفوهَا فيما يفدُ عَلى ثغور الهندِ منْ سفنٍ.

ولاحظَ البرتغاليونَ أنَّ هذا النهرَ كانَ يستخدمُ كحوضٍ للسفنِ التِى ترسُو عَلى ضَفَّتيه فوقَ الأرضِ الجافةِ، لإصلاحِ ما يحتاجُ منهَا إلى إصْلاحٍ.

ولمـا فـرغَ البرتغـاليونَ مـنْ جولـةِ النـهرِ خرجُـوا منــه، وأُنـزِلَ «فاسكو دى جاما» إلى المحفَّةِ آخذًا طريقَ العودةِ كما جَاء.

وهنا ازدحمَ الطريقُ بآلافِ المشاهدينَ، الذينَ جاءُوا منْ كُلِّ صوبٍ ليروْا ناسًا منَ الأمةِ التى نادتها الأقدارُ، لتستعمرَ هذِه الأرضَ بعدَ قليلٍ! وكانت الأمهات تَحْملْنَ أطفالهن أو تَصْحَبْنَ أبناءهنَّ فى أذرعتهنَّ الممتدَّة، حَتى لا يفوتهم ذلكَ المهرجانُ الرائعُ.

وعاد الموكبُ إلى المدينةِ حيثُ أُدْخِلَ الضيوفُ بيتًا ضخمًا للعبادةِ مَبنيًّا منَ الحجرِ المنحوتِ الصَّقيلِ، ومُغَطى بالقِرْميدِ[1]، وكانتْ جدرانُ المعبدِ مُزَينة بِرسُومٍ افتنَّ الصانعونَ فى رسمِهَا، ورشَّ الهنودُ الماءَ المقدسَ علَى الضيوفِ طبقًا لتقاليدِهم.



(١) القِرْميدُ: كُلُّ مَا طُلِىَ بهِ للزينة.. كالزَّعْفرانِ والجِصِّ. والجمع قراميدُ.

وهنا اتجهَ «فاسكو دى جاما» إلى اللهِ هو ورجالُه، فصلُّوا شكرًا للهِ فى هذا المعبدِ الهنْدى، كما صلَّى منذُ عشرةِ أشهرٍ ونصف فى معبدٍ صغيرٍ قربَ مدينةِ لشبونة قبلَ مُغادرتهم أرضَ البرتغالِ.

صلاةٌ هناكَ فى مياهِ البرتغالِ القريبةِ، وصلاةٌ هنا فى مياهِ «قاليقوط» وفى أرضِ الهندِ العجيبةِ، وبدايةٌ مؤمنةٌ فى أولِ الطريقِ، ونهايةٌ مؤمنةٌ فى آخرِ الطريقِ، لأنَّ الإيمانَ دائمًا هو الذى يعينُ علَى صعَابِ السبيلِ..

واحتشدَ الناسُ علَى طرقاتِ المدينةِ، حَتَّى لم يعدْ هناك مكانٌ لِقَدَمٍ، ولا مجازَ لمزدَحِمٍ. واستحالَ المرورُ حتى سُدَّت منافذُ السبلِ، وتعطَّلَتْ حركةُ العبور، فاضطرُّوا تخفيفًا للزحامِ أنْ ينزلُوا «فاسكو» ورجَاله فى بيتٍ منْ بيوتِ المدينةِ، إلى أن تستردَّ المدينةُ بعضَ الهدُوءِ.

وأرسَلَ «الزامرين» شقيقًا للوالى - وكانَ أحدُ أشرافِ هَذه البلادِ - ليكونَ فى صُحبةِ «فاسكو دى جاما» فى طريقه إلى قصرِ «الزامرين». وكانَ فى الموكبِ رجالٌ يدقُّونَ الطبولَ، وينفُخونَ فى الأبواقِ، ويُزَمِّرُونَ فى مُوسيقى القِرب المزركَشة بالخيوطِ الزاهيةِ والألوانِ الجذَّابةِ، ويرسلونَ شعلاً تنبعثُ من بنادقَ مَحْشوة بالكَبْرِيت.

وكانَ الموكبُ يَبْدُو فى جلالٍ وأُبهةٍ كما يصنعُ الأسبانيونَ فِى الاحتفالِ بملُوكهم.

ولم تكنْ شوارعُ المدينةِ وطُرقاتها وحدها تموجُ بالمشاهدينَ والمستقْبِلينَ، فقد كانتْ سطوحُ البيوتِ ونوافذها تموجُ منهم بالعددِ العديدِ.

وكلمّا تقدمَ الموكبُ خطوةً ازدادت الطرقاتُ زحامًا، واشتدَّ المهرجانُ أُبهةً وفخامةً. ولما دنَا الموكبُ منْ قصرِ الزامرينَ، خفّ جماعةٌ منْ بطانةِ الملكِ وكبارِ الرجالِ وأهلِ الجاهِ لاستقبالِ الزائرِ الكبيرِ..

وكانَ الوقتُ أصيلاً، وَبَهَتَ لونُ الشمسِ استعدادًا للرحيلِ. فلمَّا بلغُوا القصرَ مَرُّوا ببوابةٍ كبيرةٍ عاليةٍ تنتهِى إلى فناءٍ رحيبٍ. ولم تكن هَذه البوابةُ إلا مُقدمة لأربعةِ أبوابٍ ضخَام، كلُّ بابٍ منها يُؤَدى إلى مَا بَعْده.

وَلَقَى البرتغاليونَ مشقةً كَبيرةً فى اجتيازِ هَذِه الأبوابِ، فقد كَانت الممراتُ ضَائِقةً بالعددِ العديدِ منَ المشاهدينَ والمشاركينَ فِى الحفلِ، واضطرَّ الضيوفُ - لكى يشقُّوا لهم طَرِيقًا - أن يستعملُوا اللكَمَاتِ! ولم يجدُوا حرجًا فى هذِه الوسيلةِ التِى أسْعفتهم بالخروجِ منْ مأزقٍ شديدِ الضيقِ!

ولما بلَغُوا قريبًا منَ المكانِ الذِى كانَ يجلسُ فيه «الزامرين»، رَأوا شيخًا كبيرَ السنِّ ضئيلَ الجسمِ مُقبلاً عَليهم، ولم يكنْ هذا الشيخُ غيرَ رئيسٍ دينى كبيرٍ.

وتقدمَ الرئيسُ الدِّينى ليستقبلَ «فاسكُو» عندَ مروره منْ آخرِ الأبوابِ، وليقبلَه ويباركَ مَقْدَمَهُ إلى القصرِ الكبيرِ.

وقد جُرح بضعةٌ منَ القومِ عندَ اجتيَازهم الأبوابَ وبلُوغِهم البابَ الأخِير، ولحسنِ الحظِّ لم يُصَبْ واحدٌ منَ البرتغاليينَ بجرحٍ فِى هذا الزحامِ الشَّدِيدِ.

وكأنما كانت جراحُ المجروحينَ تحملُ مَعْنى أنَّ الوصولَ إلى صاحبِ هذا القصرِ، وسلطانِ هذه الأرضِ، دُونه أهوالٌ وأهوالٌ!

كان «الزامرين» حينمَا انتهَى إليه الضيوفُ البرتغاليونَ مُحَاطًا ببضعةٍ منْ أتباعِه المخلصينَ، وكانَ مُتكئًا علَى أريكةٍ مُنَجَّدَةٍ بالمخملِ[1] الأخضرِ اللطيفِ، وكانت أغطيةُ الأريكةِ منْ نسيج القطنِ الرفيعِ الناصعِ البياضِ الذِى يبدُو كأنه نسيجُ الكتانِ الأبيضِ الرقيقِ. وكانت الوسائدُ مُنجدة بالمخملِ المغطَّى بأكْسيةٍ منَ القطنِ.

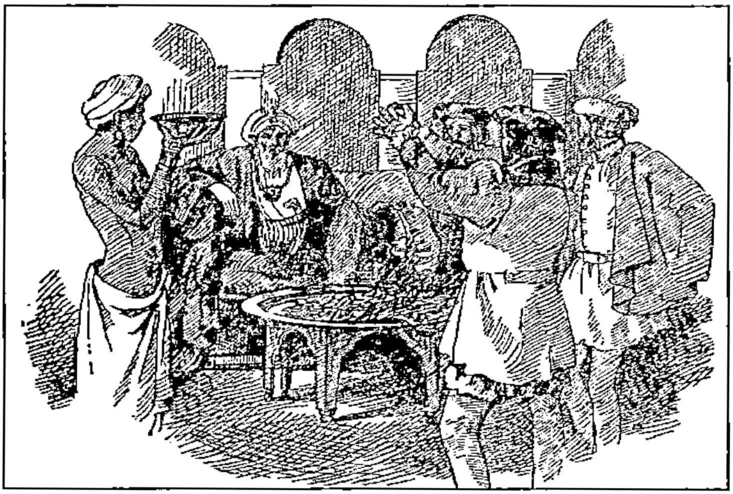
ورأَى البرتغاليونَ شيخَ البحارِ الزامرينَ يحملُ فى يدِه اليسرى مبصقةً كبيرةً من خَالصِ الذهبِ. وبينَ لحظةٍ وأُخرى كانَ الملكُ الهِندى يتفلُ فى المبصقةِ ويرمى فيها بتفالةِ نباتٍ كانَ يمضغه ويستَحْلبه. ولم يكنْ ذلكَ النباتُ غير ورقِ «التانبول» الطيبِ الرائحةِ الذِى وصفَهُ الرحالةُ المسلمُ ابنُ بطوطة قبلَ ذلكَ بقرنٍ ونصفِ قرنٍ منَ الزمانِ بأنه «يذهبُ بروائحِ الفمِ، ويهضمُ الطَّعامَ، ويقطعُ ضررَ شربِ الماءِ الكَثيرِ ويفرحُ آكِلَهُ! »

---

(١) المخمل : القطيفةُ.

وكانَ على يمينِ الزامرينَ طبقٌ كبيرٌ منْ خالصِ الذهبِ، على هيئةِ طَسْتٍ كبيرٍ، وقد بلغَ منْ ضخامةِ قُطره أنه يتسعُ لتطويقِ الذراعينِ. وكانَ هذا الطبقُ مملوءًا بأوراقِ نباتِ التانبول التِى كانَ الملكُ يتناولُ منهَا قدرًا منْ حينٍ إلى حينٍ.

وكانَ بريقُ الذهبِ فى الأطباقِ والطَّاسَاتِ، وبريقُ الستائرِ والطنافسِ[1] المطرزَةِ بالذهبِ، ولمعانِ الأباريقِ والقواريرِ المصنوعةِ مِنْ صَافى اللجينِ، ينعكسُ كلُّه أمامَ أعينِ الرائينَ، فيوحِى إليهم بأنهم حَقِيقةً فى أرضِ الذهبِ التِى كانُوا يحلُمونَ بهَا منْ زمنٍ طَويلٍ!



(١) الطَّنافِس: جمعُ الطِّنْفِسَةُ وهى البساطُ يُلْقَى عَلى الأرضِ أو على المقاعدِ.

ودخلَ «فاسكو دى جاما» فحيَّا «الزامرين» علَى طريقةِ أهلِ الهندِ، قابضًا بيديهِ رافعًا لهما نحوَ السماءِ، وما أسرعَ ما فَصَلهما ثُمَّ ثنَّى قَبْضَتى يديه.

وأشارَ ملكُ «قاليقوط» وشيخُ البحار إلى ضيفِهِ العظيمِ بيدِه اليمنى ليتقدمَ منه قليلاً، ولكنَّ البرتغالى الدَّاهية اللَّبق لم يفعلْ، لأنه كانَ يعلمُ منْ مَرَاسم.الملكِ فى «قاليقوط» أنَّ أحدًا لا يجرؤُ علَى الدُّنو مِنَ الملكِ غيرَ التابعِ الخاصِّ الذِى يقدمُ له أوراقَ التانبول! وأنَّ كلَّ منْ يحظَى بلقاءِ الملكِ، وينالُ شرفَ المثولِ بينَ يديهِ لابدَّ أن يقفَ على خطواتٍ بعيدةٍ واضعًا يدَه فوقَ فَمِهِ!

ونظرَ الملكُ إلى بقيةِ الضيوفِ نَظْرَةً فهمُوا منهَا أنها أمرٌ لهم بالجلوسِ، فجلسُوا على مَصْطبةٍ منَ الحجرِ حيثُ يكونونَ بمرْأى قريبٍ منْ جَلالتهِ! وأمرَ الملكُ بأنْ تقدمَ أباريقُ الماءِ للضيوفِ لكى يغسلُوا أيديهم، وجاءتْ ألوانٌ منْ فاكهةِ الهندِ كانَ منهَا ثمارٌ تُشبه الشَّمام، كما كانَ منها ثمارُ الموزِ التِى استطابهَا البرتغاليونَ إلى حدٍّ كبيرٍ.

وكانَ حفنةٌ منَ الخدمِ يقدمونَ هذِه الفواكهَ إلى الضيوفِ، بلْ كانُوا يقومونَ بإعدادهَا للأكلِ حتى لا يحتاج البرتغاليونَ إلى تقشيرهَا!.

وما كانَ أكثر سرور «الزامرين» وهو يرمقُ الضيوفَ بنظَرَاته الباسمةِ، وهم مقبلونَ على أكْلِ الفاكهةِ بلذةٍ كبيرةٍ، بينمَا كان يتحدثُ إلى تابعهِ الخاص الذِى وقفَ قريبًا منه يقدمُ له أوراقَ التانبول!

وألقى «الزامرين» نظرةً على «فاسكو دى جامـا» الـذِى كـانَ فـى مُوَاجهته، ثم دعاهُ إلى أن يتكلَّمَ أمامَ الحاشيةِ ورجَـال البـلاطِ الذيـنَ يمثلونَ أعْلى طبقاتِ البلادِ ويعرفونَ مَصَالحها، وأفهمَهُ أنـه يسـتطيعُ أنْ يُصَارحهم بكلِّ شىءٍ، وهم بعدَ ذلكَ سيناقِشُونه معَ الملكِ مُنَاقشةَ الحرِيصين.

وأجابَ «فاسكو دى جاما» بأنه سفيرُ ملكِ البرتغالِ، وأنه يحملُ مِنْ لَدُنـه رسـالةً كُلِّـفَ أنْ يقدمـــهَا شــخصيًّا إلى «الزامريـــن». وأبـدَى «الزامرين» سُرُوره بأن يتلَقَّى فى حَضْرته سفير ملكِ البرتغــالِ وأن يتناولَ رسَالته من يدِ سَفِيره، وطلبَ فى الحالِ أن يُفْسحَ له الطريــقُ إلى غرفةٍ خاصَّةٍ.

ودخلَ «فاسكو»، ونهضَ «الزامرين» ليصْحَبه إلى الغرفــةِ، بينمـا بقى البرتغاليونَ ورجالُ البلاطِ كُلُّهم فى مكَانِهم لا يبرحُونَ!.

وحملَ أحدُ الأتباعِ وسادةً منَ الوسائدِ، ولم يكد «الزامرين» يدخـلُ الغرفةَ الخاصَّةَ حتى ألقى نفسَه عَلى أحدِ الأرائكِ، وكانت الطنـافسُ هنَا وهناكَ مُوَشَّاةً بخالصِ الذهبِ، الذِى يخطفُ بريقُهُ الأبصَارَ.

وأذنَ «الزامرين» «لفاسـكو دى جامـا» أن ينقـلَ رسَالته عَلـى أتم وجوههَا، فقالَ إنَّ مليكَه «عمانويل» يملكُ منَ الثراءِ مـا لاَ يحيـطُ بـه وصفٌ، ومَا لم يتحْ لغـيرهِ مـنَ الملـوكِ المجاورينَ، وأن آبـاءَ هـذَا الملـكِ العظيم - منذُ ستينَ عامًا - قد أُولعوا بكشْـفِ طريـقٍ إلى الهنـدِ غـيرِ

طريقهَا المألُوفِ، لأنهم يودُّونَ منْ صميمِ القلبِ أنْ يُؤَكـدوا الروابـطَ بينهُم وبينَ أهلِ الهندِ المسيحيينَ..

وأكدَ «فاسكو» للزامرينَ أنَّ هذِه المعانِى الرُّوحية هىَ التِى حَمَلتهم علـى كشـفِ طريـقِ الهنـدِ، فمـا جاءوهَـا يطلُبـونَ ذهبًـا، ولا فضـةً ولا غيرهَا مِنْ عروضِ الدنيَا، التِى عندَهم منهَا الكثيرُ!

وقـصّ المـلاحُ البرتغـالى الداهيـةُ عَلَـى مَسَـامع «الزامريـن» أنَّ ملاحينَ قَبله قَدْ سبقُوه إلى هذِه الغايـةِ الجليلـةِ منـذُ عـامٍ أو اثنـينِ، ولكنَّ المؤنَ نفدَتْ منهم حَتَّى كادُوا يهلكونَ، فاضطرُّوا إلى العودةِ إلى البرتغالِ قبلَ أن يبلُغوا الهدفَ الذِى كانَ حلمُ البرتغـاليينَ منـذُ عقـودٍ منَ السنينَ وقَصَّ «فاسكو» عليه أيضًا حكايـةَ السـفنِ الأربـعِ التِـى بناهَا الملكُ «عمانويل» ملكُ البرتغالِ لهذِه الرحلةِ الكشفيةِ التِى عَيَّنَهُ قائدًا لها، وأمرهُ أن لا يرجعَ إلى بلادِه مِنْ غيرِ أنْ يرى ملـكَ الهنـدِ، وإلاَّ كانَ جزاؤُهُ أن يفصلَ رَأْسَه عَنْ رَقَبته! وأنه - إذَا وُفق فِى لقاءِ ملكِ الهندِ - فعليْهِ أنْ يؤكدَ له ولاءَ أخِيه وصَدِيقه ملكِ البرتغَال!.

وردَّ الملكُ الذِى كانَ لائـذًا بـالصمتِ طُـولَ الوقـتِ، مُرحبًـا بسـفيرِ صَديقه وأخِيه «عمانويل»، وَاعِدًا أنْ يرسلَ مع «فاسـكو دى جامـا» سفيرًا منْ عِنده إليه، تحقيقًا لرغبةِ الملاَّح العظيمِ.

كانَ بدءُ اللقـاءِ عنـدَ غـروبِ الشـمسِ، ولكـنَّ مراسـمَ الاسـتقبالِ، وتشعُّب الحديثِ بينَ الملكِ وضيفِه قـد امتـدَّ إلى سـاعةٍ مُتـأخرةٍ مـنَ

اللَّيل، فَخَيَّر «الزامريـن» ضيفَـه بـينَ المبيـتِ عنـدَ العـربِ أو الهنـودِ. ولكنَّ «فاسكو» آثرَ أن ينامَ وحيدًا فِي شُرفة رحيبةٍ ممتدة، أُضيئتْ فيها شمعةٌ كَبيرةٌ!

وخرجَ الضيوفُ البرتغاليونَ مع قَائِدِهم للبحثِ عنْ مكانٍ ينـامونَ فيه، وَحَولهم جموعٌ منَ المستقبلينَ يُخْطِئها العددُ.

وفجأةً انصـبَّ المطـرُ، وجَـرى فـى مسـالكِ المدينـةِ كأنـه الأنـهارُ، وحُمِل «فاسكو» فى محفـةٍ، والليـل لا يـزال يزحـفُ، والمطـرُ لا يـزال يتسـاقطُ، حتـى أنهكـه التعـبُ، وأضنـاه السـهرُ، فشـكَا إلى أحـدِ عُمَّال «الزامرين» وكانَ عربيًّا موكُولاً به العناية بـالضيفِ فـى خـلالِ نومهِ.

وأخذه العربى إلى منزلِهِ الخاص، حيثُ دخلُوا إلى فناءٍ دَاخِلـى، بـه شُرْفَةٌ مبنيةٌ منَ القِرْميد. وما أسرعَ مـا فُرِشـت البسـطُ، وبُسـطت السجاجيدُ عَلى الأرض. وكانَ هناكَ شمعدانان كبيرانِ عَلى كلٍّ منـهما مصباحٌ مَعْدنى، تتدلَّى منْ فروعهِ الأربعةِ مسـارجٌ تضـاءُ بـالزيتِ أو الدهنِ. وجىءَ إلى «فاسكو دى جاما» بحصانٍ يَرْكبـه إلى مكـانِ نَوْمـه، ولم يَكنْ عليه سرجٌ، فأبى المَلاحُ أَنْ يمتطيَـه، وَطالمـا امتطَـى السـفنَ فى أشدِّ الأعَاصير! وقضَى البرتغاليون لَيْلَتهم كمـا شَـاءَتِ الظـروفُ، وفِـى اليـوم التـالى أمـرَ «فاسـكو» بمجموعـةٍ مـنَ الهدايَـا لترسـلَ إلى «الزامرين». وكانَ فيـهَا ثيـابٌ برتغاليـةٌ مُزَرْكَشـة، وأغطيـةٌ للـرأسِ

قُرمزية اللّون، وقبعاتٌ، وسِـبَحٌ مـنَ المرجـانِ، وسـتةُ أطبـاقٍ لغسـلِ الأيدِى، وصندوقٌ منَ السكرِ، وكمياتٌ من الزيتِ والعسلِ!.

ولما كَانَ منْ تقاليدِ القومِ أنْ لا يُهْدى إلى الملـكِ شـىءٌ مـنْ غـيرِ أَنْ يُعْلَم به الأميرُ العربى والوَالى، فقد أخبرهمَا «فاسكو» بتفاصيلِ هذِه الهديةِ حتى يكونَا عَلى علمٍ بهَا.

وعُرِضت الهدايَا عَلى الأميرِ العربى والوالى ليريَاهَا قبلَ أنْ تقدَّمَ إلى «الزامرين»، ولم تكدْ تقعُ عُيُونهما عَليها حتى ضحِكَا منها، وسَـخِرَا مِنَ اختيارهَا، لأنها لا تسمُو إلى قدر ملكٍ كالزامرينَ!

وقالَ العربـى إنَّ أفقـرَ تـاجرٍ مكـىّ حـينَ يدخـلُ أرضَ الزامريـنَ يقدمُ إليه منَ الهدايَا ما يفوقُ هديةَ البرتغـاليينَ قـدرًا، وأنـه إذا كـانَ لابدّ مِنْ هديةٍ فليسَ هناكَ إلا خَالص الذهبِ! لأنَّ ملـكَ «قـاليقوط» لا يقبلُ مَاعَدَاه!

وبَدَا الأسفُ عَلى وجهِ «فاسـكو» الـذِى اعتـذرَ بأنـه لا يحمـلُ معـه نِضَارًا[1]، وأنه ليسَ تـاجرًا ممـنْ يجوبـونَ البحـارَ للتجَارة، وأنـه ليـسَ إلا سَفِيرًا وممثلاً لملكٍ أُوربى عظيمٍ!

واعتذرَ الملاحُ الداهيةُ أكثرَ بأنَّ مَا قَدَّمه ليسَ هَدِية ملكٍ إلى ملكٍ! وإنما هُوَ هدية خَاصَّة، منْ خَالصِ مَاله هو، يتشرفُ بتقديمهَا إلى ملكٍ كبيرٍ! ولو أنَّ الملكَ «عمانويل» أرسَـله ثانيـةً بعـدَ عودتِـهِ إلى لشـبونة

---

(١) النُّضَارُ: الذهَبُ الخالِصُ.

فإنه لا شكَّ سيحمِّلهُ منَ الهدايَا الثمينةِ، والتحـفِ الغاليـةِ، مـا يليـقُ بقدرهِ، ويسْمُو إلى مَقَامه!

وجاءَ جماعةٌ من تُجَّار العربِ يشهدونَ هذِه الهديـةَ، فاسـتصغروهَا عَلى «الزامرين» سيد البحَار، واقترحُوا أن لا ترجـعَ ثانيـةً إلى سـفنِ البرتغـاليينَ، وألا تقـدمَ بـالطبعِ إلى الملـكِ. وليكـنْ نصيبـهَا بعـد كمـا يتصوره القارئُ اللبيبُ!

ويَرْوى مدوِّنُ الرحلةِ أنَّ تجارَ العربِ حَـاولوا أنْ يعكِّـروا الجـوَّ بـينَ «الزامريـنَ» وبـينَ البرتغـاليينَ، لأنـهم توقَّعُـوا مِنْـهُم منافسـينَ لهـم خَطريـنَ فِـى التجـارةِ الهنديـةِ العربيـةِ التـى احتكروهَـا مـنْ زمـنٍ بعيدٍ.

وبينما كانَ «فاسكو» يتحرَّقُ غضبًا وسُخْطًا، لما توهّمه منْ مِعاكسةِ العربِ له فى بلاطِ «الزامرين»، كانَ رجالُه يقضونَ الليـلَ فـى غنـاءٍ ورقْصٍ ونَقْرٍ عَلى الدفوفِ، ونفْخٍ فى النايَاتِ والمزاميرِ..

وبينما كانَ البرتغاليونَ فى لَهْوِهم، كانَ تجارُ العربِ مع «الزامرين» يصـورونَ لـه الأخطـارَ التِـى يحملـهَا وَرَاءهـم هـؤلاءِ المغـامرونَ مـنْ لُصوصِ البحار، وصَوَّروهم لديهِ فى صورةِ القراصنةِ الذيـنَ لا هَـمَّ لهم إلا السَّـلْب، واسـتطاعُوا - حِرْصًـا عَلـى مَصَالحِـهِم - أن ينفِّـروا «الزامرين» منهم، وأن يُخوفوه منْ نيَّاتهم وأغْراضِهم، إلى حـدٍّ أثـارَ مخاوفَ سيدِ البحار الهِندى إلى حَدٍّ بَعيدٍ!.

وأشرقَتْ شمسُ اليومِ التالِى بحادثٍ جديدٍ..

لقد جَاء العربُ ليقدِّمُوا «فاسكو» ورجَالَه إلى «الزامرين»، وبدَا[1] الغضبُ عَلى وجهِ ملكِ «قاليقوط» لأسبابٍ أَعْلَنهَا: أولها أَنَّ «فاسكُو» حضرَ إلى القصرِ متأخرًا يومًا عَنِ الموعدِ المضْرُوب! وأنه يزعمُ أنه جاءَ مِنْ بلادٍ غنيةٍ ولكنه لم يقدمْ إلى الملكِ منَ الهدايَا ما يدلُّ عَلى هَذَا الغِنَى! وأنه زعمَ أنه جاءَ برسالةٍ منَ الملكِ «عمانويل»، ولكنه إلى الآن لم يقدِّمْ الرسَالة..

ولم تنفعْ اعتذاراتُ «فاسكو دى جاما» بأن متاعبَ الطريقِ قدْ أَخَّرَته عَنِ الحضور إلى القصرِ فى الأجلِ المحدودِ، وبأنه لم يحملْ هدايَا إلى «الزامرين» لأنه جاءَ مُكتشفًا لاَ مُهْدِيًا، أما الرسالةُ الملكيةُ فقد حملهَا حَقًّا، وهو مستعدٌّ لأنْ يسلمهَا عَلى الفور..!

وفى لهجةٍ ساخرةٍ وجَّه «الزامرين» إليه سؤالاً ترجَمه أحدُ التراجمةِ الذينَ أُعِدُّوا لهذَا الاستقبالِ:

- مَا الذِى جئتَ تَكْتشفُه فى هذِه البلادِ؟ أجئتَ تكشفُ أَحْجَارًا أَمْ رجَالاً؟

وإذا كنتَ جئتَ لتكتشفَ رجالاً - كما تقولُ - فما الذِى حَملته إليهم؟ وسأل «الزامرين» أسئلةً أُخرى تتصلُ بالرسَالةِ الملكيةِ، وبعقائدِ البرتغاليينَ، وبالسِّلَعِ التى يتاجرونَ فيها. وأجابَ «فاسكو»

---

(١) بَدَا: ظَهَرَ.

بأنَّ حاصلاَتِ البرتغالِ القمح، والمنسوجَات، والحديدِ، والبرونْز وغيرهَا. وهنَا سَألَه «الزامرين»:

- ألم تجلبْ معكَ شيئًا من هذِه السلعِ التِى ذَكَرت؟

فأجابَ «فاسكو» بأنه يحملُ معه قليلاً منْ كلِّ سلعةٍ، لاَ عَلى سبيلِ الاتجَار، ولكنْ عَلى سبيلِ المعاينَةِ!!

وظَلَّ «فاسكو» ورجَالُه فى «قاليقوط» قرابةَ ثلاثة أشهر تعرضُوا فيها لرضَا «الزامرين» حينًا ولسُخْطه حينًا آخرَ، ولا شكَّ أنَّ تجارَ العرب كانُوا يُوجِسُونَ خِيفةً منْ هؤلاءِ الوافدينَ المزاحمِينَ، ولا شكَّ أنهم أَوْغَروا[١] صدرَ سيد البحار الهندِى عَلى البرتغاليينَ، فاعتقلَهُم الوالِى العَرَبى بعدَ أنْ طلبُوا قواربَ يعودونَ فيَها إلى سُفُنهم، فلم يجابُوا إلى طَلَبهم، واحْتواهم ظلامُ أسْرٍ رَهيبٍ. وَما زالَ «فاسكو» بالمصانعةِ والحيلةِ مَعَ «الزامرين» حَتَّى عَلِمَ بأسْره، فأمرَ بأن يُطلق سراحَه، وتفكَّ قُيوده، ويذهبُ فى التجارةِ كما يَشَاء، وعقدَ معه معاهدةً تجاريَّةً، كانتِ السبب فى زوالِ مُلْكه عَمَّا قليلٍ!

العودة إلى الوطن

أقامَ «فاسكو دى جاما» فى «قاليقوط» - ثغر الهندِ الكبير - هذه الأَشهرَ الثلاثةَ فِى غيرِ سلامٍ مَعَ «الزامرين»، ومعَ العربِ الذينَ كانُوا يحيطونَ سُفُنه كلَّ يومٍ بالرجَالِ الأشدَّاء المسلَّحينَ.

---

(١) أَوْغَرُوا صَدْرَه: أَغْرَوه بالحِقْدِ والضِّغْن.

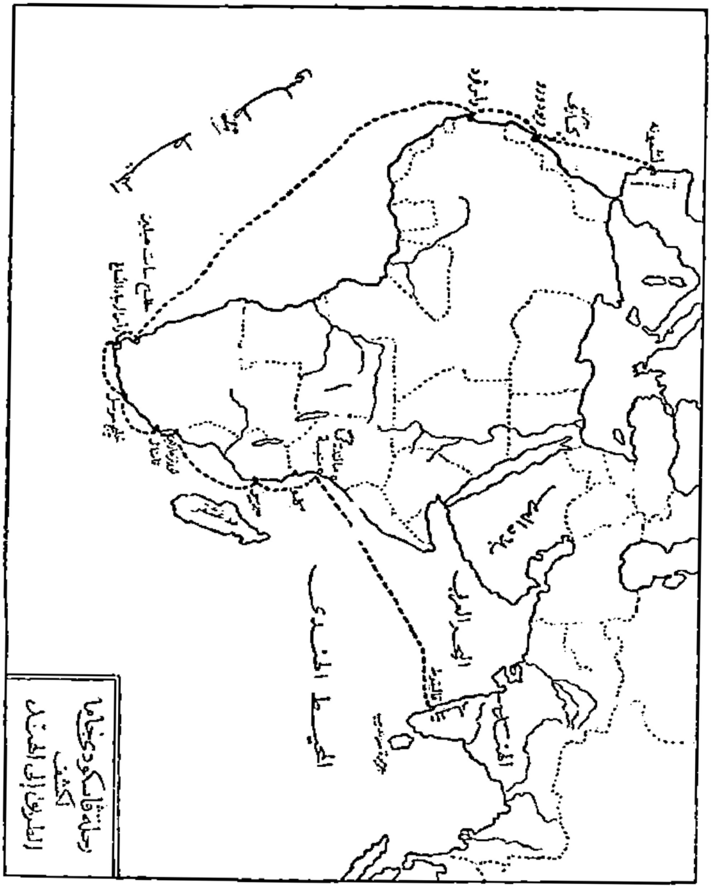
ولكنَّ «فاسكو دى جاما» كانَ منْ طراز الرجالِ الذينَ لا يستسلمونَ ولا يتهَيبونَ، لأنَّ غَايته كانتْ أَبعدَ مِنْ أنْ تقفَ - دُونها - بعضُ متاعبِ الطرِيق. واستطاعَ بالحيلةِ وبحسنِ المدخلِ أن يتوددَ إلى «الزامرين» وأتباعِه منَ الهنودِ، ولكنَّ العربَ كانوا عَلى جانبِ الحذر والريبةِ دائمًا منْ هؤلاءِ الغرباءِ الوافدينَ.

واكتفَى «فاسكو» منْ رحلته بنجاحِ المهمةِ التِى أُوفدَ مِنْ أجلهَا، وبكشْفِ الطريقِ الذِى جاءَ ليَكْتشفَهُ، وقررَ العودةَ إلى وَطَنه ليحمِلَ إلى الملكِ «عمانويل» شخصيًا بُشْرى هذَا الكشفِ السَّعيد.

وغادرَ «فاسكو» بلادَ الهندِ فى أغسطس سنة ١٤٩٨ ليبلغَ البرتغالَ فى شهر سبتمبر من العام الذِى يليه.

ولبستْ مدينة «لشبونة» أجملَ حُللها لتستقبلَ الكاشِفَ الجرِىء، كَمَا وَدَّعته قبلَ ذلكَ بعامينِ فى شهر يوليو سنة ١٤٩٧.

وازدحَمَتِ المدينةُ العتيقةُ مرةً أُخرى بالآلافِ المؤلَّفةِ، منَ الرجَالِ والنساءِ والولدانِ، الذينَ جَاءُوا ليضعُوا إكليلَ الغار عَلى جَبينِ الرجلِ، الذِى كانتْ عيونُ الشعبِ البرتغالى كُلِّه تتطلعُ إليه مِنْ وراءِ الغيبِ البَعِيد..



رقم الإيداع	٢٠٠٤/٨٩٣٥	
الترقيم الدولى	977-02-6657-4	ISBN

٧/٢٠٠٤/١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

قصص الرحالة والمكتشفين

هذه المجموعة كانت تنتظرها المكتبة العربية من زمن بعيد
انها تصور لنا رجالا من جميع العصور ومن الشرق والغرب .
خاضوا غمرات البحار . وضربوا فى مجاهل الارض . لا يقف
فى سبيلهم محيطات متلاطمة الموج . ولا صحارى قاحلة .
ولا جبال شاهقة . ولا مساحات الجليد المنبسطة فوق المناطق
القطبية المتجمدة ليكشفوا للعالم عوالم جديدة وأرضا جديدة
وشعوبا جديدة بعاداتها وتقاليدها وغرائبها

صدر منها :

١ ـ خوف حر
٢ ـ فاسكو دى جاما
٣ ـ عبد اللطيف البغدادى
٤ ـ ولتر رالى
٥ ـ عمر التونسى
٦ ـ الكابتن كوك
٧ ـ المسعودى
٨ ـ الكابتن سكوت
٩ ـ ماركو بولو
١٠ ـ بيرى
١١ ـ منجو بارك
١٢ ـ المقدسى البشارى
١٣ ـ ماجلان

دار المعارف

٢١٣٣٥٢/٠١